
الدفينة
رواية
منال عبد الحميد

الدفينة

رواية

الدفينة

رواية

الكتاب: الدفينة
المؤلف: منال عبد الحميد
تصميم الغلاف: رنا نوار
رقم الإيداع: 2014\19339
الترقيم الدولي: 978-977-85105-5-3

*****

دار الميدان للنشر و التوزيع - جمهورية مصر العربية
هاتف: 0552311408 / 01211112057
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com



الدفينة
رواية
منال عبد الحميد

استمر البحث يوما آخر قبل أن يتوقف .. كان الحاج "إمبابي" يري أن الأمر قُضي هكذا ولا داعي لإضاعة المزيد من الوقت، لكن الولد الكبير أصر علي رأيه .. وبالفعل رضخ الأب والحفارون وقرروا مواصلة العمل ليوم أخر ترضية للولد ومن أجل خاطره .. لكن النتيجة التي توقعها الجميع كانت هي النتيجة النهائية .. لا دفائن ولا كنوز في تلك البقعة الجرداء!

صرخ "خالد" محتجا وضرب الصخور بيده حتى أدماها .. لقد أنفق مالا مكينا علي تلك العملية الفاشلة .. أين إذن جرار العملات الذهبية التي أغلقها "شمول أبو حصيرة" بسحره ورصدها بقوته وجعل فتحها وكسرها مرهونا بوصول الساحر العليم ذي القوة القادر علي تحطيم قوة الرصد وإخضاع الجني الحفيظ علي الدفينة وما تحتويه من كنوز وتسييره وفقا لإرادته؟! لكن أين تلك الدفينة وهذه الكنوز .. أحلام وهراء سحرة ونصابين؟!

صرخ "خالد" محتجا غاضبا، ركع علي ركبتيه فوق الحفائر الحديثة وأمسك بالتراب اللين المندي بعرقه وعرق شركاؤه في الحفر، وأخذ يلطخ به جبهته ووجهه علي غرار (النسوان الحزاني) ويلطم كامرأة ثكلي. كان الابن الأكبر للحاج "إمبابي" يصرخ ويولول لاعنا أيامه وحظه والشورى السوداء التي صدقها والتي أضاعت من ماله ما أضاعت:

-"يا ليلة سوده! يا ليلتك السودا يا "خالد" يا ولد "إمبابي"..
دا داهية إيه دي! "
كان الأب حاضرا فأمسك بكتف ولده المقعي علي الأرض وأقامه بالقوة رغما عنه وصرخ فيه بقوة:
-" بطل ولولة زي الحريم يا موكوس يا عبيط .. حد قالك تصدق كلام النصابين يا حمار يا ابن الـ...... "
تجمدت الدموع في عيني "خالد" -ذو الستة والثلاثين عاما- ولم يجرؤ علي الرد علي أبيه .. ولكن حتى لو أمتلك الجرأة الكافية للرد فماذا عساه يقول؟!
ليس هناك أي شيء يمكن أن يقال بعد:
-" أردم يا واد أنت وهو! "
هتف الأب أمراً لكن "خالد" صرخ محتجا وتوسل لأبيه:
-"والنبي سيبها يا أبا .. نجرب كمان يوم واحد .. يوم واحد وبس .. والله هو يوم واحد كمان وبس! "
نظر الأب لولده الأكبر بغل وغيظ ثم رد عليه ناهرا:
-"والنبي ولا ساعة يا ولد الموكوسة .. كفايانا دق وحفر بقي .. لحد يحس بينا ويروح يبلغ الحكومة ويجوا يعملوا فيها شرقا علينا .. أكتم خالص يا واد! "
وهكذا أمر الأب -وأمره هنا لا يرد- بردم كل ما تم حفره من أرضية المخزن الملاصق للبيت، فأطاع العمال الأجراء وبدءوا في الردم بالفعل وإعادة كل شيء كما كان تماما منذ

أسبوعين. وذهب كل منهم لحال سبيله بعد أن تلقي "يوميته" من الحاج "إمبابي" .. أما الحاج نفسه فقد دفع ولده دفعا نحو البيت وتبعه وهو ينفخ غيظا وقرفا من دنياه كلها ومن خلفته وما جرته عليه من بلايا!

*****

"جيهان" الابنة الصغرى للحاج "إمبابي" فتاة في الثامنة عشرة تقريبا من العمر .. نحيلة جميلة سمراء ذات عيون واسعة وشعر طويل ناعم مسترسل .. لم تذهب إلي المدرسة، ليس لأن عادات القرية تمنع ذلك فالجميع صاروا يعلمون بناتهم، لكن لأن أمها توفيت وهي مجرد رضيعة.. وتزوج الأب من أخري لم تسيء معاملتها بقدر ما أهملتها واعتبرتها كأنها غير موجودة علي الإطلاق .. رفضت زوجة الأب ذهاب "جيهان" إلي المدرسة لكي تساعدها في أعمال المنزل، هكذا أدعت أمام الأب في البداية .. لكنها في الحقيقة لم تبقها بدون تعليم لهذا السبب، بل لأنها هي نفسها (زوجة الأب) أمية جاهلة لا تعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة، ولا ترغب في ابنة زوج متعلمة تتعالى عليها .. لم يكافح الأب كثيرا دفاعا عن طفلته الصغيرة، رغم أن أبناؤه الكبار كلهم، بما فيهن بناته الكبريات المتزوجات، تعلموا ودخل بعضهم الجامعة أيضا ..

علي أية حال كان هذا هو حال "جيهان" وظروفها، شاءت أم أبت، وسواء رضيت أم سخطت فقد كان عليها أن تتكيف مع هذا الوضع .. وقد تكيفت بالفعل .. بل لقد أثبتت إنها فتاة محاربة كذلك، فما أن بلغت مبلغ الفتيات حتى أصرت علي الالتحاق بفصول محو الأمية لتتعلم، وكان لها ما أرادت .. ودخلت محو الأمية وتعلمت القراءة والكتابة بسرعة مذهلة، بل وأثبتت أنها أجدر بما هو أفضل، فتقدمت بمساعدة مدرسة قريبة لها إلي الامتحانات للحصول على (شهادة محو الأمية) وحصلت عليها بالفعل.. ثم قررت الالتحاق بالمرحلة الإعدادية من (منازلهم) وهذا ما رفضته زوجة الأب رفضاً باتا .. لكن الأب، ولأول مرة، يقف بجوار ابنته ويصر علي تحقيق رغبتها مهما كلفه الأمر .. وبالفعل اجتازت "جيهان" امتحانات الصفي الأولي والثاني الإعدادي علي التوالي .. ثم ألفت نفسها وليس أمامها سوي عام واحد لتحصل علي الشهادة الإعدادية وتحقق حلمها في الالتحاق بمدارس الثانوية العامة .. ثم الجامعة .. وهكذا وهكذا وهكذا !

تلاعبت الأحلام بعقل "جيهان"، وأمدتها بقوة دافعة جعلتها قادرة ليس علي مواجهة زوجة أبيها، التي هدتها الأيام أخيرا، والتغلب عليها فقط .. بل علي مواجهة الدنيا بأسرها، من أجل تحقيق طموحها، لو لزم الأمر!

إذن كانت الأيام تعد "جيهان" بالكثير وتقدم لها الكثير لتحلم به.. لذلك، ولشدة غرقها في لجة أحلامها السعيدة، لم تهتم الفتاة كثيرا بما يصنعه أخيها المعتوه وكل هؤلاء الرجال الغرباء في مخزنهم القريب .. لم تهتم لأنها فعلا لا يعني لها ما يحدث علي بعد أمتار من جدار غرفتها شيئا .. لأنها كانت تستعد لامتحان الشهادة الإعدادية الذي تعلق عليه آمالا كبار جدا !

إذ لم تكن الحفرة ولا الدفينة المرجوة منها تعني شيئا لـ"جيهان" وليست موضع أهمية بالنسبة لها .. لكن تلك الدفينة، التي لم يكن قد تم كشفها بعد، قُدر لها أن تلعب دورا بالغ الأهمية في حياة تلك الفتاة السمراء .. دورا مهما وخطيرا ومخيفا !

*****

أخيرا خيم الهدوء علي البيت .. نام الحاج "إمبابي" وزوجته مبكرا كدأبهما .. وأوي كل واحد من الأولاد إلي غرفته بصحبة زوجته، ما عدا الإبن الأكبر "خالد" الذي ظل ساهرا يلطم ويلعن ويولول في غرفته وزوجته "هناء" -ابنة عمه- تحاول تهدئه بدون جدوى وتطمئنه بأنه سيجد الدفينة إن عاجلا أو آجلا بإذن الله، وأن لو كان له نصيب فيها فلن تفوته، تلك الكلمات الحكيمة الطيبة لم تفلح في مداواة جرح كرامة "خالد" ابن الحاج "إمبابي"، على سن ورمح،

الذي أكتشف أنه ليس إلا (كائن متعدد القرون) يمكن لأي غر جاهل أن يضحك عليه وينصب له فخا ويسلب (عشر أساتك) منه تحت وهم دفينة وكنز وهمي لا وجود له .. فليحزن ويضرب نفسه ويعض بنان الندم كيفما شاء، لكن الست -التي يعشق "خالد" كل أغانيها- كانت قد حلت له تلك الإشكالية منذ أحقاب عندما أكدت أن الندم والعتاب لا يفيدان ولا يعملان شيء!

ما صدقت "جيهان"، التي ضاقت ذرعا بصراخ أخيها الهستيري الذي وصل حتى غرفتها، رغم أنه يعلوها بطابقين، أن خلد للنوم، أو صمت .بأية طريقة لا يهم، وساد الصمت والهدوء أرجاء البيت المتسع، لتعود إلي استذكارها النشط الدؤوب!

كانت "جيهان" تذاكر تلك الليلة في مقرر الدراسات الاجتماعية وكانت تعاني مشكلة كبيرة مع الخديوي "إسماعيل"، المسرف المتلاف .. لم تكن مشكلة التلميذة النابهة مع الخديوي نفسه، فالمؤكد أنه لم يسبب لها أي ضرر بشكل مباشر، لكن مشكلتها كانت مع واضعي المقرر نفسه المصرين علي أن الطالب (سندوتش) كلما حشوته أكثر كلما أظهرت مدي كرمك!

وكانت أعمال الخديوي "إسماعيل" وسلفيه أكثر من أن يستوعبها عقل "جيهان" مرة واحدة .. فوجدت نفسها

مضطرة إلي أن تعيد وتزيد .. ثم تزيد وتعيد ثانية لتعرف من فعل ماذا ومتى؟!

دعك من لماذا .. فهي ليست من أولويات واضعي المناهج والمقررات التعليمية المصرية!

لذلك استغلت "جيهان" فرصة الهدوء والسلام الصامت المهيمنان علي البيت لتتفرغ لحل مشاكلها المزمنة مع عائلة "محمد علي" كلها إن أمكن!

بعد ربع ساعة كانت الفتاة في قمة تركيزها مع الصفحة التي تستذكرها وقد أوشكت أن تصل لاتفاقية سلام مع "محمد سعيد باشا" علي التعايش السلمي .. لكن المفاوضات قطعها صوت مباغت قادم من مكان ما حول غرفتها!

رفعت "جيهان" رأسها الخفيضة فوق الكتاب وزاغت عيناها للحظة حينما اصطدمت بنور اللمبة الوهاج بعد ذلك الإنكفاء الطويل فوق كتابها ومسحت الفراغ حولها محاولة العثور علي مصدر هذا الصوت الغريب.

لم يكن ثمة أحد في الغرفة سواها فتخيلت أنه ربما كان صوت أحد ساكني البيت يعبر من أمام بابها في طريقه لقضاء مصلحة ما .. أو لقضاء حاجة، خاصة أن الحمام الخاص بالدور الأرضي كان خلف غرفتها تماما .. وبالفعل

كان الصوت شبيها إلي حد بعيد بخطوات آدمية تقترب وتبتعد!

تسمعت "جيهان" للحظة ثم عادت للانكفاء علي كتابها .. لكنها لم تستمع بملامح الباشا وشواربه الضخمة سوي للحظة واحدة .. عاد بعدها صوت الخطوات ليقطع عليها تركيزها للمرة الثانية!

نهضت الفتاة من فوق سريرها ببطء ووضعت الكتاب فوق المنضدة، التي تستخدمها لرص كتبها فوقها فقط لكنها تفضل الاستذكار في السرير، ثم توجهت نحو باب غرفتها ..

جذبت الرتاج وفتحت الباب ببطء ونظرت من خلال فرجة صغيرة أحدثتها فيه .. كانت تلك الخطوات قد أثارت دهشتها لسبب ما لا تعرفه، لكنها أحست أن أمرا ما وراء ترددها الغامض في جوف الليل .. ولم تشعر أنها خطوات بريئة أبدا !

أول ما فكرت فيه أن يكون أخاها الأكبر "خالد" يحاول التسلل إلي المخزن المظلم في تلك الساعة ليحاول الحفر مجددا بحثا عن تلك (الدفينة) الوهمية التي أقنعوه بوجودها .. وهي تعرف أخيها جيدا -تعرفه عنيدا متشبثا برأيه- موهوم دائما بقصص الكنوز والدفائن الأثرية، ولولا أبيها وصرامته لكان قد أزال المنزل بأكمله -ربما- ليبحث

تحته عن دفائن وكنوز أثرية فرعونية، لكن "جيهان" عندما فتحت شقا صغيرا في بابها لم تجد "خالد" يتسلل .. بل فوجئت برائحة كريهة جدا تملأ الممر الواقع أمام غرفتها، رائحة كريهة حادة وخافتة في نفس الوقت .. غريبة!

إنها لا تستطيع شمها إلا إذا كرست حاستها الشمية جيدا لتعقبها لكنها ما إن تفعل حتى يؤذيها مدي حدة وعفونة تلك الرائحة الغريبة ..

كان هناك شيء محترق في الأمر .. لكنها لم تعرف ما هو بالضبط!

أتكون احدي نساء البيت قد نسيت أحد عيون البوتاجاز مشتعلة وأمسكت النار بشيء .. أتكون هي من نسيت البوتاجاز مشتعلا بعد أن صنعت لنفسها كوب الشاي الأخير منذ نصف ساعة؟!

أسرعت "جيهان" نحو المطبخ وفتحت الباب ودلفت داخله وأشعلت النور، لا شيء .. المطبخ هادئ تماما وساكن وكل مصادر النار مطفأة، فجأة شعرت "جيهان" بشيء يصطدم بها من الخلف! أحتك بها شيء ما وهي واقفة معطية ظهرها للباب المفتوح .. شعرت بسخونة تلفح مؤخرة عنقها فاستدارت سريعا وحملقت في كل شيء بذعر ..

منضدة المطبخ الطويلة، الملاصقة للحوض، بما عليها من أطباق نظيفة مغسولة ومجففة مكومة فوق ظهور بعضها لئلا تلعقها قطة، لو تسللت إحداها إلي داخل المطبخ أثناء الليل بطريقة ما.. ربطات الثوم والبصل المعلقة حول الحوائط مدلاة منها .. عناقيد البامية التي جففُت فوق السطح وجيء بها إلي هنا انتظارا لسقوطها في حلة الطبخ عندما يحين موعدها .. الثلاجة المطفأة .. طبق الفاكهة البلاستيكية الذي تضعه (العايقة) زوجة أخيها "بدر" في المطبخ مثل التليفزيون .. كل شيء في مكانه تماما .. كل شيء هادئ ساكن عاقل وفي قمة الاحترام لنفسه .. إذن ما الشيء الساخن الذي لفح عنقك من الخلف يا فتاة لتوه!
تلفتت "جيهان" حولها بريبة لثوان قبل أن تقرر العودة إلي غرفتها.. تأكدت أولا من إحكام غلق محابس البوتاجاز ومكبس الأنبوبة .. ثم أطفأت النور وعادت لغرفتها .. هناك وجدت كل أشيائها في انتظارها كما تركتها بالضبط .. ما عدا "سعيد باشا" الذي مل منها فيما يبدو وقرر الإفلات منها .. لم يكن الباشا وحده هو الذي تبخر بل إن كتاب الدراسات كله أختفي تماما !

*****

حتى قرب الفجر كانت "جيهان" تدور كالملتاثة تبحث عن كتابها.. لقد تركته مفتوحا علي صفحة رقم (76) قبل أن

تتركه مقلوبا علي وجهه وتخرج من غرفتها لتبحث عن مصدر صوت الخطوات الذي سمعته وهي جالسة بالداخل .. ولكن أين هو الكتاب الآن؟!

لا أثر له في الغرفة كلها .. في البداية اعتقدت أنه أنزلق وسقط أسفل السرير، عندما تركته فوقه .. لذلك هبطت علي قدميها وأزاحت ملاءة السرير إلي أعلي مستكشفة المنطقة الواقعة بجوار وأسفل الفراش لكنها لم تعثر فيها سوي علي ورقة ممزقة ومنديل كلينكس مستخدم، بينما الكتاب نفسه لا أثر له .. كادت الفتاة تجن وهرعت إلي منضدتها المكدسة فوقها الكتب المدرسية والخارجية والمذكرات، وقلبتها كتابا كتابا وورقة ورقة دون أن تعثر علي أثر لكتاب الدراسات .. بعدها فقدت صوابها فأخذت تفرغ الأدراج وتفتش تحت وفوق وفي كل ركن، وحتى ثيابها انتزعتها من فوق الأرفف ومن فوق الشماعات وفتشتها باحثة عن كتابها ولكن بلا فائدة .. أخيرا سقطت "جيهان" علي فراشها وهي تئن وتكاد تهوي فاقدة الوعي:

-" يا ربي .. راح فين الكتاب .. راح فين ؟! "

لكن البنت المسكينة لم تجد جوابا علي سؤالها البديهي السهل الإجابة .. كان تنفسها يرتفع وينخفض نتيجة الجهد والتوتر الكبيرين .. ونكست رأسها واضعة يديها فوقها وأخذت تنتحب في خفوت وتدعو الله أن تجد كتابها

العزيز ولو كان الثمن أن تتصبح وتتمسي بخلقة "سعيد باشا" و"ديليسبسه" ليل نهار .. وهنا بدأ آذان الفجر الرطيب يهز الأركان بجلاله وجماله .. ورفعت "جيهان" عينيها المرهقتان لتري عجبا !

لقد تركت الكتاب وصورة " سعيد باشا" تزينه .. لكنها الآن تري أبيه "محمد علي باشا" يحدق فيها بعينيه النافذتين وكأنه يحدثها بقوله:

-" من هذه البنت التي تجرأت علي إقلاق منام حظرتنا ! "

كان كتاب الدراسات أمامها علي المنضدة موضوعا .. وعلي صفحة (54) مفتوحا!

هبت "جيهان" من موضعها وألقت بذراعيها أمامها في نفاذ صبر فعادا إليها حاملين الكتاب الغالي وهي لا تكاد تصدق نفسها ..

كيف أختفي الكتاب بمفرده ثم عاد بمفرده أيضا؟!

سؤال سيبقي بلا تفسير .. وإن كانت "جيهان" نفسها لم تبحث له عن تفسير ولم تُعمل عقلها فيه .. فيكفيها أن كتاب الدراسات عاد إليها فقط!

ابتسمت "جيهان" وكادت تبكي فرحا .. ورفعت رأسها .. لتجد شكلا غريبا يحدق بها من الطرف الآخر وصورته منعكسة بوضوح علي المرآة في الناحية الأخرى!

*****

عندما فتحت عينيها للمرة الثانية كان الشكل قد أختفي ولم يعد له وجود في المرآة !

هزت "جيهان" رأسها بقوة ونفضت ذراعيها محاولة إبعاد تلك الخيالات عن رأسها .. لقد سهرت أكثر من اللازم واستذكرت دروسها عدة ساعات متتالية دون أن تعطي نفسها راحة ولو لمدة ربع ساعة فقط، فليس من الغريب إذن أن تشعر بالإرهاق وأن تري خيالات وأوهام غريبة كتلك التي رأتها لتوها ..

لذلك استسلمت الفتاة أخيرا لحقيقة أنها متعبة وبحاجة لقليل، لكثير، من الراحة .. وأوت إلي فراشها بعد أن رتبت كتبتها فوق المنضدة وأطفأت الأنوار .. وساد الظلام والصمت المطبق البيت بأكمله وقت قصير، قبل أن يستيقظ الحاج "إمبابي" كعادته كل فجر لتأدية الصلاة في المسجد القريب ..

هبط الأب السلم بهدوء لكن قدميه الغليظتين اللتين دسهما في حذاء كبير، يتجاوز مقاسه الخمسة والأربعين نمرة، أحدثتا دويا قويا مكتوما تردد صداه في أرجاء الدور السفلي الغارق في الظلام.. مر الحاج وهو يتنحنح أمام غرفة ابنته الصغرى "جيهان"، التي يعرف أنها تظل مستيقظة حتى تباشير الصباح لتذاكر:

-" ربنا يوفقك يا بنتي يا رب! "

دعا الأب ربه وهو يمر أمام غرفة ابنته الغارقة في الظلام .. ثم أنحرف يسارا متجها نحو باب المنزل الكبير ليغادر إلي المسجد .. لكنه في طريقه سمع صوتا يهمس بجواره فظنه صوت ابنته ودون أن يستدير قال متسائلا:

-" جيهان .. أنت صحيتي! "

لم يأته رد.. فاستدار متفقدا الأمر، لكنه لم يجد أحدا خلفه.. بل فوجئ بالباب المؤدي إلي المخزن مفتوحا فتحة صغيرة وهناك ضوء ضعيف يتحرك داخله ..

شعر الحاج بالدهشة والتعجب .. فمن ذا الذي فتح المخزن الآن ولماذا .. عساه ألا يكون، ولده الأكبر المخبول يعود لنبش الدفينة الموعودة في تلك الساعة بمفرده!

-" هتموت مخبول يا ولد المخبولة ! "

هتف الحاج محنقا .. ثم توجه نحو باب المخزن ودفعه بصمت وهدوء ونظر داخلا ..

لم يكن هناك أحد بالداخل .. لكن الحفرة العميقة التي ردمت جزئيا منذ ساعات كانت فاغرة فمها علي اتساعه الآن .. وهناك ضوء لامع يغشي الأبصار يتدفق من داخلها يرافقه صوت خفيض يردد كلمات ما بلغة غير مفهومة!

*****

شهقت "جيهان" فزعا ونهضت مبللة بالعرق وهي تشعر بالاختناق والذعر ..
تلفتت حولها لدقيقة حتى أطمأنت للعالم المألوف المحيط بها ثم بدأت تهدأ وتطمئن قليلا .. لا شيء دخيل من خارج عالمها العادي لكن لماذا إذن داهمتها تلك الرؤية الغريبة؟!
إنها لا تتذكر الكثير مما رأته .. لكن الشذرات التي لا زالت عالقة بذاكرتها تنبئها بأنها كانت نائمة وشعرت بيد تمتد لتمسك بشعرها المنسدل فوق الوسادة، بعد أن حلت رباطه قبل أن تنام كعادتها، كانت يدا ساخنة ملتهبة ولفحها نفس حار عفن جعلها تهب فزعة من نومها .. حلم مخيف لا معني له إلا إن الإرهاق وكثرة السهر مضرين ويجب أن تحاول الإقلال منهما قدر إمكانها فيما بعد!
عادت "جيهان" لوسادتها ثانية وحاولت إكمال نومها .. ولأنها مرهقة سرعان ما سرق الكري عيونها الجميلة لكنها لم تهنأ بنوم خال من الأحلام كما كانت تتخيل وتتمني ..
للمرة الثانية حلمت بتلك اليد الساخنة تلمس شعرها وشمت الأنفاس العفنة بالقرب منها ففتحت عينيها .. تحركت ناهضة نصف جالسة في سريرها .. ونظرت حولها متطلعة في خوف تلك المرة. كانت خائفة بحق لأنها أدركت أمرين أسوأ من بعضهما .. أولهما أنها لم تكن نائمة

ولا تحلم .. وثاني تلك الحقائق المزعجة أن ثمة مخلوق موجود معها في الغرفة في تلك اللحظة .. تلفتت "جيهان" جوارها ببطء وأدارت رأسها بتردد وبمفاصل مرتعشة .. ثم بعد ثانية كانت صرخة هائلة تخرج منها وترج البيت رجا!

*****

دخل الأب المخزن بهدوء .. كان يقدم رجلا ويؤخر الأخرى ويدخل مقبلا مدبرا .. في الداخل كان الظلام منتشرا عدا خيط من الضوء يتلألأ صاعدا من قاع الحفرة التي من المفترض أن تكون شبه مردومة الآن لكنها لم تكن كذلك .. كانت ثمة عملية حفر، أو إعادة حفر تمت في محيط الدفينة، لكن الغريب أنه لم يكن هناك رديم جديد ناتج عن ذلك .. بل كانت الحفرة متعمقة في الأرض عموديا وبنظافة .. أقترب الحاج متوترا مغمغما بالتشهدات والاستغاثة بالله تعالي .. رمي الرجل ببصره إلي مركز الحفرة ليجد خيط ذهبي من الضوء يتدفق منها إلي الأعلى من كومة كبيرة من القطع الذهبية المكومة فوق بعضها صانعة تلا صغيرا من المعدن النفيس البراق .. الذهب، يالله، الحفرة مليئة بالذهب واللقي الذهبية !

شهق الحاج فزعا ودهشة وفرحة، لكن فزعه ازداد حينما شعر ببرد مفاجئ يغمر الكون من حولهِ ويتسلل إلي

معدته فيجعلها ترتعش، ثم أحس بيد تهزه برفق .. فأستيقظ !

نهض من نومه ليجد نفسه يحدق في وجه امرأته المغطي بغشاء الدمامة والبلاهة الناتج عن النوم، اللعنة عليها لقد انتزعته من الحلم الوحيد الذي تمني ألا ينتزعه أحد منه أبدا!

لكن حتى رؤية وجه زوجته التي تهوي النكد مثل عينيها علي ريق الصباح هكذا لم يبدد كل ما كان يعتمل في نفس الحاج "إمبابي" من فرحة وبشر .. إن الله يرسل إليه البشري وينبئه بأن الدفينة تحوي الخير له ولأولاده !

لن يمنع "خالد" من إعادة الحفر في الدفينة مرة أخري .. بل قرر، والأمر لله والبشري منه، بأن يساعده في العمل منذ مساء اليوم !

*****

علي الإفطار تجمعت الأسرة الكبيرة .. الحاج وزوجته وأولاده ونسائهم وأحفاده .. طبعا لم يكن ثمة صينية تكفي كل هذا العدد ليتجمع حولها، اللهم زد وبارك، لذلك فقد كان الإفطار بنظام (اللي يلحق حاجة يأخدها) .. جلس الرجل الكبير في الصدارة وحوله أبنائه الذكور، بينما تراشقت حولهم النساء والبنات في وسطهم الأطفال صغارا وكبارا .. لكن الطعام كان كثيرا وخير ربنا كثير .. لكن

"جيهان" كانت شاحبة ولا شهية لها لتناول الطعام ذلك الصباح .. دفعت زوجة أخيها طبق الفول بالطماطم، الذي تحبه خاصة، أمامها فنظرت إليه لدقائق، قبل أن تغمس لقمة صغيرة في الفول الممزوج بالطماطم والذي تتصاعد منه الأبخرة ذات الروائح الشهية، وتأكلها ببطء وتزدردها بصعوبة ثم تنهض ببساطة معلنة أنها أنهت طعامها:

-" الحمد لله "

نظر الأب لإبنته بقلق وسألها:

-" كلتي على كده؟! "

همست الفتاة بصوت مبحوح متوتر:.

-" الحمد لله يا بابا .. شبعت خلاص! "

أمعن الأب نظره في ملامح ابنته الشاحبة والقلق البادي علي وجهها .. ثم تركها تعود إلي غرفتها دون أن يعلق!

*****

رغم كل شيء كان البَشر يطفح من ملامح الأب، وعقب انتهاء الإفطار وانصراف الحريم والأطفال كل إلي حال سبيله، أستبقي ولده الأكبر "خالد" معه قليلا وأنتحي به ركنيا قصيا من المندرة الواسعة وقال له بصوت خافت:

-" أنا عايزك ترجع تحفر تاني يا "خالد" ! "

نظر الولد لأبيه غير مصدق وقال:

-" بجد يا أبا؟ طيب ليه؟! .. ما أنت رافض ومحكم رأيك منمدش إيدينا علي المخروبة دي تاني."
تنحنح الوالد وأجاب:
-" بص ما تكترش في الكلام أنا جاتلي بشري بس مينفعش أحكيهالك لحسن ما تتمش! "
أشرق وجه الولد وهتف سعيدا:
-" والله العظيم؟! خلاص يبقي نبدأ حفر من الليلة .. أنا هروح أتفق مع "أبو علاوي" يجيب لنا العمال الليلة بعد الدنيا ما تهدي والرجل تتقطع من الشارع. "
-" أنت ما صدقت! أستني لما نرتبها سوا .. ما تقولش لا لـ"أبو علاوي" ولا لغيره .. إحنا هنحفر كده مننا فينا مش عايزين حد ينطلنا فيها! "
نظر "خالد" بدهشة إلي أبيه:
-"وإحنا هنقدر نحفر لوحدينا .. ده تراب وحجارة ياما لازم تتشال .. هنقدر علي كل ده لوحدينا! "
شخط الأب بصوت خافت في ابنه وزجره قائلا:
-"بقولك جاتلي بشري يا بني آدم .. إحنا هنحفر شوية صغيرين والدفينة هتطلع إن شاء الله .. مش عايزين حد ينطلنا فيها!"
-" طيب والرصد؟! "

-" لما نبقي نوصل للمقبرة إن شاء الله أنا عندي اللي هيفك لنا الرصد بدل الخيبان بتاعك ده! ده راجل أهبل و نصاب!"

حك "خالد" شعره وقال مستسلما، رغم إنه كان غير مقتنع في الحقيقة:

-"طيب يا أبويا أمرك .. نبدأ أمتي طيب؟! "

بإصرار أجاب الأب وهو ينهض ويسوي شاله وعمته:

-"الليلة علي طول بأمر الله .. علي المسا كده بعد الدنيا ما تهدي."

خرج الوالد تاركا ولده الأكبر يعوم .في موجة من البشر والسعادة، رغم أنه كان لا يزال غير مقتنع بأنه هو وأبيه قادرين علي أن يعملوا بحفر الدفينة بمفردهم ويشيلوا الليلة كلها بمفردهم، لكن الحقيقة أنهم سوف يفعلون ذلك وبأسرع مما يتخيل.

*****

عادت "جيهان" إلي غرفتها، لم تكن قد أكلت إلا أقل القليل علي الإفطار، لكنها لم تكن جائعة أيضا. في غرفتها نظرت إلي التقويم المعلق علي الحائط وبدأت تحسب الأيام المتبقية علي موعد امتحاناتها، لم تكن خائفة من الامتحانات نفسها لكنها كانت تعرف معني أن تفشل في الحصول علي الشهادة الإعدادية أو جتى ترسب في مادة أو

مادتين وتحصل علي ملحق. سيدمر ذلك أملها في الالتحاق بالثانوي العام وربما يغير أباها رأيه فيها وفي تفوقها.
أطمأنت أولا علي وجود كافة كتبها بالقرب منها ووضعت الملخصات والكتب الخارجية والمذكرات في صف بمفردها، كان يجب أن تنتهي من مادة الدراسات اليوم لتبدأ غدا في مراجعة الجبر والإحصاء، فتحت الكتاب وبدأت في مطالعة الدرس قبل الأخير في التاريخ، لكنها أحست فجأة بنوم ثقيل يهبط عليها.
غشيها تعب ودوار ثقيل فتركت الكتاب من يدها وتمددت علي فراشها، ستغلق عينيها عشر دقائق لتستريح قليلا ثم تنهض لمواصلة الاستذكار، كانت الساعة لا تتجاوز التاسعة صباحا.
أغلقت عينيها وخلال نصف دقيقة سحبها تيار هادئ دافق إلي أسفل فنامت. فتحت عينيها بعد دقائق قليلة كما خططت تماما، لم تكن متعبة بل كانت نشيطة منتبهة، كانت الغرفة غارقة في الظلام حولها، لأنها قبل أن تغفو أسدلت الستائر وأغلقت نافذة غرفتها الوحيدة. لكن الغريب أنها عندما صحت شمت رائحة شيء محترق حولها في الغرفة، هبت علي الفور وأخذت تتطلع حولها بقلق لكن لم يكن ثمة ما يشتعل أو يحترق هنا. تسمرت مكانها وقد تذكرت أنها نفس الرائحة التي شمتها ليلة

أمس في المطبخ، هل يكون هناك تسريب غاز من أنابيب البوتاجاز الكثيرة في البيت؟!

قامت "جيهان" قليلا ورفعت نفسها عن وسادتها، لمح شيئان مشتعلان بالقرب من وجهها وانبعثت ذات الرائحة النفاذة الكريهة بالقرب منها.

وضعت يديها علي فمها لتمنع نفسها من الصراخ المدوي ، فقد كان هناك مخلوق يقف بالقرب منها ويحدق فيها بعينين مشتعلتين.

ارتعشت "جيهان" وعجزت عن النطق أو الحركة، اقتربت الرائحة المحترقة منها وأنبعث المزيد من اللهب من العينين الناريتين وهما تزدادان اقترابا منها.. أحست برغبة حارقة في الصراخ لكنها عجزت عن ذلك من فرط الذعر.. امتدت يد غير مرئية لها ولامست جانب وجهها.. أجفلت وتراجعت إلي الخلف في فراشها .. ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت النظر حولها٠لتري حدود هذا الشيء الواقف بقربها فلم تستطع لإطباق الظلام .. فجأةِ ألتهب .بقربها ضوء أحمر ثم أنطفأ سريعا جدا، ليعود للتوهج واللمعان في أقل من ثانية .. زكمت رائحة الحريق أنفها واقتربت منها للغاية، ألتصق شيء ساخن بذراعها ثم فارقته الحرارة وبرد فجأة .. ثم سمعت صوت يتنهد بقربها، أجفلت وتناءت في فراشها ما استطاعت محاولة الابتعاد، لكنه

لحقها فورا.. المزيد من التنهدات الخافتة ثم ظهر صوت واضح النبرات يقول:

-" كم أنت جميلة! "

وضعت يدها علي فمها محاولة كتمان صرخاتها فقال الشيء الجاثم بقربها:

-" قوليها فقط وسأتركك الآن! "

شعرت "جيهان" ببرودة تلفها وبقلبها يرتجف، رغم الحرارة المحرقة القابعة بالقرب منها، فتساءلت مرتجفة:

-" أيه هي دي؟! "

كانت تتساءل عن المطلوب منها أن تقوله وفقا لكلام هذا الشيء غير المحدد المعالم (قوليها فقط).

تنفس الشيء بعمق مطلقا سحابة من السخونة مرت بالقرب من صفحة وجه "جيهان" فأجفلت أكثر وتراجعت للخلف محاولة الاحتماء بوسادتها:

-" تعالي إلي عالمي .. قولي نعم. "

مضت ثانية ثم أمتد شيء متلصص كأفعوان وأطبق علي ساعد "جيهان" النحيل، أرتجف جسدها كله ولم تعد قادرة علي المزيد من ضبط النفس، فخرجت منها صرخة استغاثة مروعة رنت في جنبات البيت!

*****

فتحت "جيهان" عينيها فوجدت زوجة أبيها و"هناء" بنت عمها وزوجة أخيها "خالد" بقربها، كانت زوجة الأب تبدو لا مبالية بينما ظهرت علامات القلق الفاحصة علي وجه "هناء" التي بادرت سلفتها قائلة:

-" خير يا "جيهان" .. أنت عيانة يا حبيبتي ؟! "

اعتقدت "جيهان" طبعا في البداية أن صراخها هو سبب مجيء المرأتين للاطمئنان عليها -لكن لم تكن تلك هي الحقيقة-أما زوجة الأب فقد أنتهزتها فرصة لتعبر عن غلها المكبوت تجاه قرار "جيهان" وإصرارها علي إستكمال تعليمها، فمصمصت بشفتيها وقالت متصعبة في تصنع:

-" من كتر المذاكرة يا كبدي ..اللي زيها قاعدين مع أجوازهم متهنين وهي مقطعة عنيها في الكتب يا عيني! "

-" جاكي وجع في عنيكي! "

هذا ما تمنت "جيهان" لو أن بوسعها أن ترد به علي زوجة أبيها اللزجة المتطفلة، لكن لم يكن هذا هو الوقت ولا الظرف المناسب لقول ذلك:

-" هو أنتوا سمعتوني وأنا بصرخ ؟! "

سألت "جيهان" وهي ترفع نفسها بصعوبة عن وسادتها المبللة بالعرق فردت عليها "هناء" بدهشة:

-" بتصرخي؟! لا هو أنت اسم الله عليكي كنت بتصرخي ولا أيه؟! "

إذن .. ما الذي آتي بالمرأتين؟!
إذا لم تكونا قد سمعتاها وهي تصرخ فما الذي آتي بهما إذن إلي غرفتها؟!
تبرعت "هناء" بتقديم التفسير لها فورا:
-" أصل إحنا لقيناكي أتأخرت قوي في النوم ومتغدتيش ولا جيتي تتعشي قمنا قلقنا عليكي وجينا نطمن! "
هنا هبت "جيهان" -كالملسوعة من فراشها- نظرت لساعة الحائط المثبتة علي الجدار المقابل للفراش، كادت تصاب بالجنون، فإما أن تكون الساعة غير مضبوطة وإما أن تكون عينها قد تلفت، فالساعة الخرقاء كانت تشير إلي التاسعة مساء! أي أنه قد مر علي غفوتها القصيرة اثني عشرة ساعة بالتمام والكمال.
ضاع يوم بأكمله في غفوة لم تستغرق -بحسب إحساسها- أكثر من ربع ساعة، فأين كانت ضائعة طوال تلك الساعات المتبقية؟! أين كانت وماذا حدث لها؟!

*****

قادها من يدها عبر الرواق الضخم المنير .. كانت تحيط بهما مجموعة من الجدران اللامعة العاكسة المشعة بالضياء، لم يكن الأمر مثلما هو في أبنية البشر التي يكون شكل الممرات الطولية فيها مجرد جدارين متوازيين، بل كانت هناك مجموعة من الجدران المتداخلة المتوازية في

ذات الوقت .. لم تفهم ماذا يحيط بها من أشكال بنائية معقدة؟! مثلما لم تكن تفهم إلي أين يقودها بالضبط؟! لقد جرها من يدها بلطف وهو يهمس لها بصوت أقرب إلي الفحيح:

-" تعالي معي .. تعالي معي إلي عالمي! "

حاولت أن ترد سائلة إياه بلهجتها الصعيدية العادية عما يحدث وإلي أين يود أن يصطحبها، لكنها عجزت تماما ووجدت نفسها تحاوره بلغة لم تعرفها من قبل، لغة حلقية غامضة مليئة بالحروف المدغومة والمقاطع المندمجة والتشبيهات المبتورة:

-" إلي أين نريد؟! "

همست ومازال الخوف مستوليا عليها، ولعل لسانها الذي ينطق بلغة لا تعرفها كان أكثر ما يثير خوفها، لم يستدير لمواجهتها بل أجاب وهو ماضي في جرها جرا وإن كان يفعل ذلك بلطف عجيب:

-" إلي بيتي .. بيت السيدين! "

حاولت سحب ذراعها من يده المستميتة عليه، لكنها عجزت لعظم قوته:

-" من يكونا؟! "

أرادت أن تقول (من يكون هذين السيدين؟) لكن اللغة الغريبة التي تخرج من بين شفتيها لم تسعفها سوي بتلك الكلمات المبتورة وأحست أن اللغة هنا ليست لها قيمة:

-" أبواي .. أبواي السيدين الوالدين! "

السيدين الوالدين ؟!

ما هذا .. أله أبوان كلاهما مذكر؟!

ما هذا العالم الغريب؟!

أخيرا دلفا إلي منطقة مختلفة وتركا الممر المشع بالنور خلفهما، مدا أرجلهما فوجدا أنفسهما في قاعة متسعة، كان من المستحيل تحديد مدي اتساعها بمجرد إلقاء نظرة عليها، لأن الكثير من زواياها كانت منحرفة ومتوارية عن الأنظار المستطلعة، لكن الفتاة حاولت أن تبذل جهدها رغم ذلك، فلعل إحاطتها بحدود المكان الذي جرت إليه يمنحها قليل من الطمأنينة بشأن ما سيقع لها بعد ذلك. لكن ذلك الهدف كان محالا أكثر من الحصول علي بيضة الرخ!

في منتصف القاعة، إن كان لهذا الشيء المتسع منتصف، وضع مقعدين مرتفعين ذوي مسندين منتفخين مجللين بتيجان نارية لا تكف عن إطلاق الشرر، تقدم قائدها إلي حيث وضع المقعدين الخاليين وجثا علي ركبتيه، وضع ذقنه حتى لامس الأرض وهتف باحترام:

-" السيدان الوالدان .. الابن الصغير يجثو ويتوسل في طلب منحة الرؤية! "

من خلال عيونها المندهشة المذعورة شاهدت الفتاة عجبا! شيئان ضخمان مثيران للذعر يتجسدان ببطء ويتموضعان مباشرة فوق المقعدين المرتفعين، لم تكن أشكالهما مخيفة لكن أحجامها ونظرات عيونهما المتحجرة الثابتة، بدت عيونهما كأنها لا تطرف أبدا، هي التي كانت كذلك!

ساد الصمت في القاعة المترامية وفجأة خرج صوت قوي مزلزل يقول ببطء مثير:

-" السيدين الوالدين أقلق سباتهما بسبب نداءات الابن الأصغر المتكررة.. من العسير أن نمنحك كل ما تطلب الآن.. أحتفظ بهدوئك حتى تدنو ساعة الإستيقاظ! "

فجأة.. تبخر المخلوقان كما ظهرا وتجسدا فجأة، تلاشيا بذات السرعة.. نهض من قادها إلي هنا واستدار مواجها إياها، بينما هي تنظر حولها برعب متزايد، وهتف بغيظ يخفيه:

-" إنهما في ساعات سباتهما ولا جدوى من محاولة عرضك عليهما الآن .. يجب أن ننتظر حتى يستيقظا من تلقاء أنفسهما ويمنحانا الرضا بطيب نفس! "

اتسعت عيناها دهشة وسألت بخوف:

-" أي رضا هذا الذي ننتظر منهما منحِنا إياه! "

للمرة الثانية تتحدث بتلك اللغة الغريبة وبهذه التراكيب غير المعتادة دون إرادتها، لكن مرافقها لم يبدي اهتماما بذلك فهو مشغول الذهن بما هو أهم:

-"ليس بوسعنا أن نتوحد دون موافقة السيدين الوالدين .. لستِ من عالمنا وليس مسموح لي بالزواج منك ما لم يمنحنا الوالدين رضائهما!"

كاد يغمي عليها وهي تردد بذعر:

-" الزواج مني؟! "

نظر إليها وقد ألتمعت نظرة مخيفة مهددة في عينيه وقال بهدوء مثير للرعب:

-" لقد جئت معي إلي عالمي برضاك .. وهذا يعني في عرفنا أنك تعلنين موافقتك علي البقاء معي والزواج بي زواجا أبديا بلا نهاية "

اتسعت عيناها ذعرا وتدفق عرقا غزيرا من كل قطعة في جسدها، ترقرقت دموع مقهورة في عينيها والتفتت خلفها لتنظر سبيلا للهرب، لكن لم يكن هناك مثل هذا السبيل . بكل أسف، قالت بصوت مبحوح:

-"لم أعلن رضاي علي شيء.. لقد حملتني من فراشي وجئت بي إلي هنا .. لا أعرف كيف أتيت معك أصلا!"

ابتسم كاشفا عن أقبح تجويف فم يمكن رؤيته علي الإطلاق، وتدفق حولها سخونة محملة برائحة احتراق

كريهة جدا، وبدأ يتقدم نحوها بتؤدة. خافت وبدأت تتراجع بظهرها إلي الخلف وعيناها مركزة عليه وقلبها يدق ذعرا متوقعة سوء العاقبة:

-" لا تراعي فلن أؤذيك .. ليس بعد حتى تعلنين العصيان ساعتها سأكون في حل وسأفعل بك ما يفوق خيالك من أفعال .. سأعيدك إلي فراشك الآن .. هاتي يدك! "

مدت إليه يدها مرتعشة، رغم أنها لم تكن تريد مدها إليه أبدا، لكن إرادتها وجسدها كلا منهما كان يعمل في معزل عن الأخر .. تناول يدها وضغط عليها فشعرت بألم حارق يسري عبر عروقها ويمتزج بدمها ويصل حتى رأسها ويكاد يشعله نارا:

-" لا تؤذني .. لا تؤذني من فضلك ! "

أقترب منها أكثر وأكثر حتى كاد وجهه الكريه يلامس وجهها المبيض ذعرا.. داهمتها رائحة الاحتراق الكريهة حتى أحاطت بها من كل ناحية.. زمت شفتيها وحاولت كتمان أنفاسها حتى تمنع نفسها من استنشاق المزيد من تلك الرائحة الكريهة، ضغط يدها ثم تناول يدها الأخرى وأمسك بكليهما بين يديه وضغطهما للمرة الأخيرة وفح في وجهها كاشفا عن تجويفه الفموي الكريه ذو الرائحة الثقيلة ..

وخلال لحظة تبددت سحب الرائحة الكريهة من حولها .. تلاشت الرائحة ومعها تلاشي قائدها الغامض المخيف .. فتحت عينيها ببطء .. كان جفنيها ثقيلين وكأنهما قدا من صخر ولا يطيعا أمرها لهما بالتزحزح إلا بكل نفس ذائقة الموت .. أحست أنها مشلولة عاجزة فاقدة القدرة حتى علي فتح عينيها .. مضت لحظة بدأت بعدها الحياة تدب في أوصالها الخامدة والدم الحار يعود إلي الجريان في العروق الباردة ويملئها برحيق الحياة !

خلال خمس دقائق كانت قد استعادت الحياة في جسدها.. فرفعت نفسها بصعوبة عن الفراش ونظرت حولها !

كان الظلام منتشرا والسكون الكريه يعم كل الأرجاء .. لا صوت ولا نأمة ولا شعاع ضوء !

لكن آثار الرائحة الكريهة كانت لا تزال هناك .. آثار طفيفة لكنها كانت لا تزال محيطة بها في تلك الظلمة الشاملة !

*****

مر يومان من الحفر السري في موضع الدفينة بدأت بعدهما البشائر تظهر تباعا. في بداية معاودة الحفر كان الأمر مخيبا للآمال فلم تظهر في اليوم الأول سوي قطع مسطحة من الحجارة، صحيح أن بعضها كان عليه

تشققات، بدت وكأنها نقوش، وبعض شقفات من الصلصال المحطم، وقليل من الأواني الفخارية الصغيرة القبيحة الشكل، بدت كلها وكأنه لا قيمة ترتجي منها.

لكن الساعات الثلاث الأخيرة من اليوم التالي حملت بداية ظهور البوادر الطيبة.. في الطبقة الأولي كانت الطبقة الطينية قوية وصلدة إلي حد ما، لكن بعد وقت من الحفر والكحت بدأت ترق كاشفة عن رمال سائبة وإشارات إلي أنهم يرفعون طمما وأتربة ولا يقطعون صخرا جديدا، وهذا له معني واحد .. أن هذه الأرضية حُفرت بأيد بشرية من قبل وليس صامدة منذ بداية الزمن.

وخلال ساعة أخري بدأت الأحجار الشمسية تظهر .. كانت أحجارا كبيرة نظيفة تعلوها طبقات من التراب المفكك ولا يلتصق بها طين رطب أو جاف مما يعني أنها أحجار استخدمت في ردم وإغلاق .. وليست أحجارا عذراء بنت أمها الأرض لم يكشف عنها إنسان من قبل!

لم يكن الحاج "إمبابي" يفقه شيئا في موضوع طبقات التربة والأحجار الشمسية والطمم هذه.. لكن ولده "خالد" الذي ضيع من عمره أعواما في البحث والنقاش حول الدفائن المزعومة وطرق العثور عليها كان يفهم معني وصولهم إلي أحجار هذه شأنها وهم علي تلك المسافة غير العميقة جدا من الحفر .. إنهم يقتربون من هدفهم وبسرعة!

كانت المسافة المراد حفرها ونقبها غير متسعة للغاية لكن العمل من جانبين مختلفين كان شاقا للغاية لدرجة أن الأب وابنه لم يكونا قادرين علي مواصلة العمل لأكثر من ذلك تلك الليلة. رغم تلهف "خالد" الشديد للمواصلة بعد كل تلك المبشرات التي ظهرت .. تنحي الأب جانبا وجفف عرقه البارد وقال لولده بحسم:

-" كفاية كده يا ولدي .. تعبنا خلاص .. تعالي نأكل لنا لقمة ونريح! "

لكن الولد واصل الحفر بلهفة وأجاب علي أبيه:

-" طيب نحفر كمان شوية يا أبوي .. خلاص والله قربنا نوصل للكنز! "

هتف الحاج مستنكرا:

-" يا واد بقولك تعبت .. يعني عايزنا نفضل نحفر لحد ما نقع من طولنا ولا أيه؟! مفرقتش الليلة من بكرة .. يلا دس الحاجة خلينا نطلع نأكل .. مكلناش حاجة من ساعة العصر! "

أخيرا أستسلم "خالد" وألقي معوله جانبا وجفف عرقه بدوره بطرف جلابيته ثم قال لأبيه مبتسما:

-" طيب يا حاج .. أمرك! بس بكرة بمشيئة الله نحفر بدري عن كده! "

نظر الحاج لولده وهو يكمل ارتداء جلبابه وشاله ورد بسرعة:

-" إن شاء الله .. بس المهم محدش يقول حاجة للحريم وإننا رجعنا نحفر لوحدينا وكده، أنت عارفهم رغايين وكلامهم كتير وممكن واحدة فيهم تقول لأمها ولا لخالتها ولا لصاحبتها ويفضحونا ويلموا علينا الدنيا يا ولدي .. وإحنا مش ناقصين شرك من أولها! "

لكن مشروع المغادرة تأجل علي حين غرة .. فالحاج وولده نظر ليجدا عجبا أمامها .. طرف جرة لمعت يشغف أمامهما في الفراغ المحفور ثم اختفت تاركة شبقا جنونيا للكنز في نفسيهما .. شمر الرجلان عن ساعديهما فورا وواصلا الحفر بجنون وحماس وخلال لحظة كانت هناك ثغرة مفاجئة وسط الصخور تنفتح تحت معاولهما المحمومة .. وتحت أرجلهما انفتحت فوهة مظلمة تدعوهما إلي النفاذ إلي قلب الدفينة المنتظرة!

*****

متوترة شاعرة بسخونة حارقة تلفها من كل جانب نهضت "جيهان" من نومها.. كانت قد آوت لفراشها، بعد سهرة إستذكار ومراجعة طويلة، رغما عنها، كانت الامتحانات قد اقتربت، وأصبحت تركض مهرولة نحوها ولا يفصلها عنها سوي أيام، لكنها كانت قد تضعضعت تماما ولم يبق فيها

رمق للاستمرار في الاستذكار أكثر من ذلك.. في حقيقة الأمر أنه لا الامتحانات ولا اقتراب مواعيدها كانت هي الأسباب التي تثير فزع "جيهان" على هذا النحو، بل كان مرد كل هذا الفزع والقلق هو الأحلام والرؤى الغريبة التي تداهمها كثيرا هذه الأيام.

أحلام عجيبة تري فيها نفسها برفقة مخلوق غريب مخيف وتتنقل في معيته بين أماكن وساحات لم يخطر وجود مثلها في الكون لها على بال من قبل، وكوابيس أخري تري فيها ذات المخلوق يهددها ويتوعدها مبديا رغبته في التزوج بها مهددا إياها بالثبور إن لم ترضخ له .. لكن أي زواج وأية كوابيس وهي تحسب الأمر كله هراء وخيالات ناجمة عن خوفها المبالغ فيه من مواجهة امتحانات الإعدادية المرتقبة!

نهضت "جيهان" عن فراشها بصعوبة، كانت تعاني ضعفا وخمولا غريبا هذه الأيام، وصدفت نفسها تماما عن تناول الطعام حتى لم تعد تفعل أكثر من أن تجلس إلي المائدة، إطاعة لأوامر أبيها، وتحويل الطعام من الأطباق الموضوعة أمامها إلى أطباق أبناء أخوتها، متظاهرة بالأكل .. كان الحاج "إمبابي" يلاحظ سلوك ابنته الصغرى كعادته، لكن ليس بما يكفي من التركيز والإهتمام، فإهتمامه الآن صار منصبا على أمر واحد .. الرصد!

كان هو وولده "خالد" قد وصلا إلي مرحلة خطرة من التنقيب عن الدفينة المزعومة.. فقد أزالا طبقة كاملة من الصخور الشمسية ووصلا إلي منطقة غائرة متعمقة تحتوي على ثغرة مستوية الجوانب تبدو كالبئر، ولم يكن هناك شك في أنها حفِرت بيد البشر، بيد من حفروا تلك المنطقة من أرض الله منذ سنوات لا يعلمها إلا خالقها ودفنوا فيها ما يعز عليهم لدرجة أنهم (رصدوه) وحموه بأنواع مختلفة من الرصد.. كان هذا هو رأي "خالد"، الذي عرف كثيرا عن تلك الأمور من رفقته محبي البحث عن الدفائن المكنوزة، وبعد أن انفتحت الثغرة وشاهد الأب وابنه ما شاهدا فقد علما خطورة الأمر وأن الأمر جلل حقا .. إن هناك ثلاثة أنواع من الرصد على الأقل تغلق تلك المقبرة وتحميها من المتطفلين والمتهجمين!

لكن تلك الحماية الفريدة المزدوجة المتوفرة لتلك الدفينة المجهولة طمأنت الباحثين المتلهفين، "إمبابي" وولده، إلي أنهما في طريقهما إلي إزاحة التراب عن دفينة هائلة لا مثيل لها:

-" فرعون! ده أكيد فرعون! "

كان هذا هو رأي "خالد" حينما بوغت بظهور علامات الأرصاد المختلفة أمام عينيه الذاهلتين المرتعبتين .. أعوذ بالله لقد كانت ليلة سوداء بحق!

فبمجرد أن بوغتا بالثغرة تحت أرجلهما حتى تصاعدت رائحة كريهة للغاية من الحفرة الغائرة المظلمة .. حسبا في البداية أنها رائحة عطن وتحلل بشرية، وظنا أنهما ربما وقعا على مقبرة قديمة بها بقايا بشرية عادية .. لكن لا!
تلك الرائحة لم تكن رائحة تحلل عضوية .. رائحة خبيثة جدا تصاحبها نفثات من شيء يبدو كرشات رماد ساخن محمل برائحة حارقة خبيثة لا توصف صفعت جوانب وجوههم وأجبرتهما على التراجع إلي الخلف:
-" أعوذ بالله .. أعوذ بالله! "
تعوذ "خالد" مرتعبا فقد فهم (الفولة) وعرف، من سابق ما حصله من معلومات عن تلك الأمور، أنها ليست رائحة خبث عادية .. إنه خبث عفريت كافر ينفثه عليهما ليخيفهما!
وقد نال مبتغاه .. فالحاج "إمبابي" أصفر وجهه واهتز شاربه فزعا وأخذ يردد:
-" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! "
ولم يكد الرجل يتم الاستغاثة بالله حتى بدا وكأن تلك الأشياء التي تحرس تلك الدفينة اللعينة قد أقلق سباتها وأقض مضجعها ذكر اسم الله تعالي على كثب من عرينها .. ففوجئ الرجلان بسرب من ذباب أسود ضخم يخرج من

الحفرة الصقيلة وهو يئز ويتوجه صوبهما ليروعهما ويدفعهما إلي مغادرة المخزن وهما يجريان ويلهثان ويمنعان تفسيهما من الصراخ عنوة حفاظا على ما تبقي من مهابتهما في البيت !

لم تشعر أي واحدة من النسوة في البيت بما يحدث تحت أقدامهن، لكن "جيهان" التي كان تعكف على كتابها في اللحظة التي انفتحت فيها الثغرة تحت أقدام أبيها وأخيها، شعرت فورا وكأن سحابة ساخنة تطوقها، وتصاعدت حرارة عالية، مصحوبة بآلام زاعقة لتدق رأسها .. غشيت عيناها وتراقص الكون من حولها، ارتعشت. أوصالها وطفر عرق غزير بلل ما تحت ثيابها بسرعة خارقة .. دارت عيناها غير المبصرتين حولها وسقط الكتاب من يدها على الأرض .. ثم شعرت بشيء هائل ينتزعها من فوق مقعدها ويلقيها على فراشها شبه ميتة حتى تباشير الفجر الرمادي.

وبينما كان الحاج "إمبابي" وابنه الأكبر، ومعهما أخاه "بدر" الذي أحاطاه علما بالأمر، يبحثون سرا عمن يمكن أن يفك لهم تلك الأرصاد المتعددة ويمكنهم من استخلاص الكنز المدفون من بين أيدي حراسه المردة -لابد أنهم كذلك-. كانت "جيهان" التي بدأت تزوي ويصيبها الهزال، تمر بطور تحول وتغير شامل وخطير.. فقدت جزء كبيرا من وزنها خلال أيام، وأصيبت بصدود دائم عن الطعام، الذي صارت

تعافه بجميع ألوانه، وهزلت بشكل واضح للعيان، تضخمت عيناها في وجهها الذابل وأحيطتا بهالتين سوداوين بشعتين.. برزت عروقها وارتسمت تعاريجها الزرقاء بوضوح كامل على جلدها المشدود فوق عظامها البارزة الناتئة .. وحتى شعرها الغزير الناعم بدأ بالتساقط والسقوط كأشجار الخريف الجافة الميتة ..
كل ذلك كان يمكن رده ببساطة إلي رهاب الامتحان وخوفها المبالغ فيه منه .. لكن ماذا عن العلامات والرضوض الغريبة التي تظهر على ساعديها وذراعيها !
علامات طويلة حمراء ضاربة في بشرة الذراعين والساعدين تظهر وكأنها ضربات عصا رفيعة أو سوط مسلط .. الكمين الطويلين يصلحان لإخفاء تلك العلامات ما لم تكن زوجة أبيها قد رأيتها بالفعل مصادفة بينما كانت "جيهان" تعجن ذات صباح بديلا عن "هناء" زوجة أخيها التي حرقت يدها في الموقد قبل الخبيز بيومين، وكذلك رأتها "هناء" نفسها وهي واقفة تتلصص علي سلفتها وهي تعجن ليتاح لها أن تنبط عليها لكن رؤية تلك العلامات المخيفة علي ذراعيها جعلت تفكير المرأتين يتجه لشيء مغاير تماما:
-" هو أنت اسم الله عليكي يا أمي أتحرقتي ولا أتكبت عليكي حاجة سخنة يا "جيهان" ؟! "

كان هذا أول ما دار بخلد زوجة أخيها، لكن "جيهان" سحبت كميها لأسفل قليلا وقالت للمتطفلة بلهجة قاطعة:
-" لا ده أنا بس بحط دراعاتي تحتي وأنا نايمة عشان كده بيحمروا! "
طبعا كان هذا كذب صراح، وسواء كانت زوجة أبيها وزوجة أخيها صدقتاها أم لا .. فلم يكن هذا ما يهم "جيهان" الآن .. إنها لا تهتم سوي بإخفاء معاناتها الرهيبة حتى تنتهي امتحاناتها، أملها في الحياة، ثم ستذهب إلي المشايخ طالبة النجدة !
ستتحمل حتى تصل إلي حلمها وتحقق أملها أولا .. ثم ستصرخ معلنة معاناتها على الجميع!
إن ذلك الشيء يصر على مطاردتها.. كان يكفيه أن يطاردها في نومها لكنه طماع فيما يبدو.. فلم يعد يقنع بتكدير منامها فقط .. بل لقد زاد تجبرا وعتوا وجرؤ على أن يظهر لها في صحوها أيضا سامحا لها أن تراه رؤى العين !
ضَراغِمَة الجن حينما يعشقون يفجرون !
وقد عشقها ذلك الجني الضرغام للأسف .. لكن من أين آتي ذلك المخلوق؟! وكيف ابتليت به؟! ولم هي من دون الناس أجمعين؟!
فذلك ما لم "جيهان" لتعرفه .. كما أنها لم تتوقع أبدا أن تكون أفعال أبيها وأخوتها الغريبة وضربهم وحفرهم في

أرض المخزن أسفل البيت لها أية علاقة بعذابها أو بمعاناتها.. إنها لم تكن تعرف ذلك وحسنا تفعل !
من جانبه لم يلحظ الحاج "إمبابي" ما أصاب ابنته في الآونة الأخيرة من أعراض غريبة، وما تنحدر إليه بسرعة خارقة .. كانت الفتاة من النوع الحساس قليل المواءمة مع ما يحيط بها من ظروف عصيبة، ومن اليسير إرجاع كافة مظاهر التحلل الجسدي التي تظهر عليها إلي قلقها وتوترها النفسي والعصبي بسبب الامتحانات، وكان هذا جزء من الحقيقة .. لكن بقية الحقيقة كانت مختلفة عما يتصورون كلهم، الأب وزوجته وأخوتها وزوجاتهم، والخوف من الامتحانات كان بريء من دم الفتاة، الذي لم يراق بعد لحسن الحظ، براءة الذئب الشهير من دم ابن "يعقوب" !
وزاد موعد الامتحانات اقترابا وزادت "جيهان" قلقا وتوترا.. وحينما لم يعد باقيا إلا أسبوع على موعد بداية الامتحانات، أصبحت الفتاة لا تنام تقريبا وترافق سهرها المستمر وأرقها الدائم بظاهرة عجيبة .. إنها تري طيف يتابعها حيثما ذهبت وحطت رحالها .. تري حدودا خارجية طولية ترافقها وتتخفي خلفها وتكمن في انتظارها على باب الحمام وعلى باب غرفتها وكأنها حارس خفي يلازمها لحمايتها .. في الجمعة الأخيرة قبل أسبوع الامتحانات، وبينما كانت الفتاة السمراء تعكف على

مراجعة بعض دروس النحو العصية سمعت صوتا غريبا قادما من المخزن الذي يعمل فيه أبيها وأخويها كثيرا هذه الأيام ..

كان البحث عن الدفينة قد وصل إلي مرحلة بالغة الخطورة .. مرحلة فك الرصد !

كان واضحا منذ البداية أن تلك المقبرة -إن كان هناك مقبرة فعلا- محمية بطريقة جيدة جدا وغريبة بعض الشيء .. فالرصد الحامي لها مضاعف ثلاث مرات، وفك كل هذه الأرصاد القوية ليس بالعمل الهين أبدا.. أن "الشحات" الرث الثياب المتظاهر بالقوة الذي أتوا به إلي المخزن المتواري سرا ليفك الأرصاد -كما يدعي قدرته على ذلك- ارتعدت فرائصه بمجرد أن بدأ حماة الكنز في مداعبته قليلا .. والحق أن حراس الكنز أفرطوا في اللعب مع "الشحات" المسكين، فالرجل المدعي حينما أقترب من مكان الحفرة وبدأ في التمتمة بكلمات لا يدري أحد من الواقفين معناها حتى ظهرت للعيان كلهم حية خضراء اللون. كانت حية ضخمة للغاية لها جسد أملس ملتف عدة لفات ضخمة، كانت الحية جامدة تماما في موضعها وعيناها البراقتان ثابتتين تماما وتحدق بهما -القادمين إلي عرينها- بصمت وإصرار:

-" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .."

أخذ "الشحات" يردد دون توقف وهو يدير حبات سبحته الضخمة المتدلية على صدره مرددا تمتمات وكلمات غامضة في محاولة لطرد الأصلة الضخمة وإبعادها .. لكن الحية لم تتأثر ولم تتحرك خطوة من موضعها !

تهور "خالد" وتجرأ على محاولة الاقتراب منها .. لكنه لم يكد يقترب منها بوصة واحدة حتى استطالت فجأة وانفكت لفاتها المتعددة وأبرزت أنياب قاتلة بارزة كحد السيف وتقدمت لمهاجمته وهي تفح معلنة استعدادها لإيذاء أي معتد دخيل بحق ..

أسقط في يد الرجال ووقفوا مذهولين، بعد أن سارع "خالد" بالابتعاد، وكاد يختبئ فعليا خلف "الشحات" وعجزوا عن الإقدام على أية خطوة. أبتعد الجميع بأقصى قدر ممكن حتى صاروا يلتصقون كلهم بباب المخزن بالداخل، بعيدا عن رأس الحفرة التي تترصد عندها الأصلة المخيفة الجامدة كالخشب .. مرت فترة صمت طويلة لم يكن يقطعها سوي أنفاس الرجال الوجلة المتهدجة.. حتى الحاج "إمبابي" نفسه بدا كالطفل الذي رأي فأرا في فراشه وهو يقف هناك يرمق الحية الضخمة المخيفة بخوف متزايد:

-" أعوذ بالله .. ده رصد شركي ! "

نظر إليه "خالد" بدهشة وسأله ساخطا:

-"مش قولت إنك بتعرف تفك الرصد.. فين بقي ما تورينا!"
غضب " الشحات " بدوره لما أعتبره استهانة به وقال لولد الحاج "إمبابي" بغضب وحدة:
-" بقولك أيه يا واد الحاج "إمبابي" .. إحنا اتفقنا على فك رصد عادي بالقرآن وبالأدعية .. لكن جو السحر والرصد الشركي ده أنا مليش فيه .. أنا مش بشبشب* يا حاج "خالد" وأنت عارف كده كويس .. روح شوفلك حد ساحر مشرك يفكهولك .. بس خد بالك ده رصد ما يتفكش غير بعمل يغضب ربنا .. إذا كنتوا أنتوا تتحملوا غضب ربنا أنتوا حرين .. لكن أنا ده أخري معاكم يا ولاد الحلال ! "
أندهش "خالد" من الكلمات التي فاه بها المدعو "الشحات" الآن.. وإذا فاتت أمور السحر و الشعوذة "الشحات" أفندي فمن هو الذي يفعلها ؟!
دعك من كل هذا التظاهر بالتقوى والعنترية .. فالحق أن الرجل نصاب مخضرم لكنه أدرك سريعا أن الأمر يفوق قدراته لذلك فاه بكل تلك الكلمات.. وإن كان لم يكذب فعلا في أن الرصد الموضوع على تلك الدفينة شركي ويحتاج لسحر شركي مناظر لفكه .. دعك من أن الأمر يتجاوز قدراته بمراحل فعلا !
في المندرة الملحقة بالبيت عمل الأب على استرضاء "الشحات" ونفحه بنفحه طيبة من جوده، لا لشيء إلا لكي

يكفي نفسه وأولاده شر الرجل، الذي يمكن أن يغدر بهم ويبلغ عنهم السلطات بعد كل الشرد* المعتبر الذي أعطاه له "خالد" المتهور بأسفل ..

انتهت علاقة " الشحات " وأمثاله بدفينة منزل الحاج "إمبابي" .. وتبقت الدفينة نفسها حصينة عصية على الفتح وطرد أرصادها .. إلا إذا .....!

*****

-" أنا هفك لك الرصد لكن على شرط ! "

جن "خالد" فرحا عندما سمع هذه العبارة التي كان يتوق لسماعها من المدعو الشيخ "عصام همام" وتلهف لمعرفة ذلك الشرط الذي يؤكد عليه "عصام" بعناد:

-" عنيا ليك ! "

-" النص بالنص ! "

هتف الشيخ بثقة. فنظر إليه "خالد" مذعورا مرتبكا:

-" ياه .. ده أنت طماع قوي يا مولانا ! "

ابتسم المدعو "عصام" وقال بعناد:

-" لا ده مش طمع .. ده حق ربنا ! أنا هفكلك رصد أنت عارف كويس إن محدش يقدر يفكه غيري ! "

-" يا سلام ! "

قال "خالد" محاولا التظاهر بالاستهانة لكنه كان يعرف - في باطنه- أن الأخر البغيض لا يدعي إلا الحق:

-"خلاص يا ولد الناس.. مش مصدقني جرب بنفسك.. ودي معاك ودي معاك !"

لكن "خالد" لم يكن يكذبه فهو فعلا قد جرب بنفسه وأختبر "دي" و "دي" فلم تفلح أيهما ..

الحقيقة أن "خالد" وأبيه وأخاه لم يألوا جهدا طوال الأسبوعين في محاولة العثور على شخص قادر على فك الأرصاد المتعددة الموضوعة على هذه الدفينة الغريبة الشأن .. لكن كل من جلبوا لأداء هذه المهمة الروتينية فشلوا فشلا مؤزرا لا مزيد عليه !

والأكثر غرابة أن حراس الدفينة وحماتها بدوا شرسين بما يكفي لكي يهاجموا مباشرة من يحاول التغلب عليهم .. وهذا ما لا يفعله الجن الذين يخافون الإنسان أكثر مما يخافهم عادة !

إنهم يرصدون الكنوز ويحمونها .. لكن الهجوم برجم الأحجار نادرا ما يحصل .. أما هنا فلم يقتصر الأمر على الرجم بالأحجار بل لقد تعداه إلي نفثات نارية حارقة !

وهذا شيء لم يراه أحد فطاحلة فك الأرصاد من قبل .. حتى المدعو الحاج "عادل أبو الأقرع" -عمدة نبش الدفائن الأثرية وفك أرصادها واستخراج كنوزها في المنطقة بأسرها- وقف عاجزا ملتاعا إزاء ضراوة الجن الحماة

المكرسين لتلك الدفينة العجيبة وعجز تماما عن القيام بأي شيء ذي قيمة لإنهاء الموضوع ..
والحقيقة أن حراس الكنز كانوا في حالة هياج شديد .. لكنهم لم يكونوا حراسا كثيرين أصلا .. بل هو حارس واحد لا غير ولكنه بألف من المردة !
إنه المدعو "شمشقيق" الغوي أحد الشماشقة الغاوون المردة الجبارين .. ولم يكونوا يحرسون الكنوز للبشر ولا يرصد ونها أبدا .. لكنه أسر من قبل ساحر لعين قيده بحبال من التعاويذ الخادمة تمتد حتى حلق الجمل الأطرش الذي طواه الثري منذ ستة آلاف عام ولا يعرف موضع دفنه إنس ولا جان، وقيده بتلك الخوادم السبعمائة والسبعة والسبعين وعزم عليه حتى كبله بقيد لا يملك فكاكا منه .. لكنه لم يسلبه جبروته، ولا كان يقدر علي ذلك، فهام "شمشقيق" يبطش بمن أحب من الجن المستضعفين أو البشر، على أن يحرس الكنز المخبأ هنا ويرصده دافعا عنه العدا ما دام حبل خوادمه لم ينقطع بعد ..
وبقي الحال على ما هو عليه.. وإن كان شديدا على نفس "شمشق" الغوي الجبار !
لكنه أجاد تسلية نفسه على أية حال .. وبحريم من الجنيات الفاتنات ونساء البشر الغويات والساحرات وجد تسلية عظيمة للأحقاب المديدة الملقاة على عاتقه ولا يبدو

لها نهاية .. لكن ظهور تلك الفتاة الناحلة "جيهان" أعاد له عنفوان صباه ورواء أيامه الأولي المنقضية !

من كان يظن أنه يسقط صريع هوي فتاة من الإنس الحقراء الملتحفين برداء السحر النجس ليحميهم من بطشه وبطش آله الجن الغاوون وجبروتهم ؟!

من كان يظن حدوث شيء من هذه العجائب كلها كان سيوصم بالجنون حتما.. لكنها حدثت وصار الاستحواذ على تلك الفتاة الناحلة هو شغل "شمشق" الشاغل رغم الواجب الثقيل الذي يكبله ويلزمه بحراسة تلك الدفينة الزاخرة اللعينة .. إن ما يثير غضبه حقا هو تلك المحاولات البشرية البلهاء التي تجري على قدم وساق لاختراق دفاعاته ونبش المقبرة بما تحويه من كنوز زاخرة !

المصيبة أن من يقدمون على تلك المحاولات الخرقاء هم أخوي حبيبته وأبيها .. وهو وإن كان في حل من إيذائهم - وإنه لقادر على ذلك- لكنه لا يريد .. أو الحق أنه لم يرد بعد وويل لهم إن أراد أو قرر تأديبهم !

إنه لا زال يحتفظ برباط جأشه رغم تهجمهم الوقح على حماه مراعاة لكونهم أصهاره المستقبليين .. فقد قرر أن يحوز تلك البشرية الناحلة الحسناء ويضمها إلي رديفاته الخمس والثلاثين ويجعلها واحدة من حريمه .. وقد يفكر، ربما لاحقا، في جعلها أما لأحد نسله من الذكور !

لكن كل ذلك كلام سابق لأوانه .. وهو لا زال في طور التودد إليها.. وإن كان يري ردة فعل غريبة على ملاطفاته لها !
لماذا تخافه إلي هذا الحد؟! أهو قبيح أو منفر أو مجذوم أو طريدة جن قميئة.. إنه بمقاييس عشائر قومه، يعد فتي أمردا ذو جاذبية وجمال !
إذن لماذا تخافه تلك الآدمية الرائعة ؟!
لا يهم .. إنه سيغلبها في النهاية ويحملها إلي أرضه لتكون احدي زوجاته وستسعد بذلك وتنسي أيامها على الأرض .. وتنسي الأرض نفسها !

*****

في عشية امتحان اللغة العربية لم تنم "جيهان" على الإطلاق .. استيقظت في السادسة صباح ذلك اليوم، بعد نوم متقطع قلق لا يتجاوز مجموع ساعاته ساعتين على الأكثر، متعبة وهناك حرارة تلتهم جوفها وألم شديد يداهم أمعائها غير المستقرة.
-" هل هذا وقته ؟! "
تساءلت وهي تتجه نحو الحمام وفي ذهنها فكرة معينة عما يحدث .. ولكنها عندما دلفت إلي الحمام، وبعد مرور دقيقة، أدركت أن ما دار بخلدها ليس صائبا .. إنها تعاني من آلام معوية لا تعرف لها سببا .. لكن هل هذا وقته ؟!

عادت إلي غرفتها، صدفت نفسها عن تناول طعام الإفطار، وقررت أن تستذكر دروسها فهي في أحوج حالاتها إلي كل ثانية هذا اليوم.. كانت غرفتها كتلة من الفوضى و التخريب.. ولم يكن هذا التخريب بفعل فاعل سواها هي، فقد أثرت حالتها العصبية على حبها للنظام ومراعاتها لترتيب غرفتها وتنسيقها الدائم، فبدأت تهمل في رعاية شئون غرفتها وبدأت الفوضى تفرض كلمتها هناك.. فالكتب والمذكرات والملازم والكراسات تنمو فوق المنضدة والمقاعد وفوق الفراش كنبات متسلق متعدد الأذرع .. والأوراق الممزقة الفارغة والمستعملة تزين جنبات وحواف الغرفة كالورود المنثورة .. والمناديل الورقية متناثرة في كل مكان كالفطر .. وطبعا كانت الفتاة معذورة في تلك الحال الذي وصلت إليه غرفتها، فهي نفسها كانت في حالة شديدة السوء .. وزاد قدوم الامتحانات ورعبها منها من سوء الموقف ..

لكن تلك الكوابيس الغريبة التي لا تفتأ تطاردها لماذا لا تريد أن تنتهي ؟!

إنها، وحتى الساعة، تعتقد أن كل ما يحدث، أنها تعاني من هجمات كوابيس مصحوبة بزيارات من كيان غريب مخيف لا يلبث أن يصحبها معه في رحلات في أرجاء من

الكون لم تتخيلها من قبل.. لكنها لا تصدق أنها تراها فعلا في صحوها، وليس في منامها ولا هلوساتها !
لكنه لن يبقيها عند حافة الشك .. بل سيقطع كافة آمالها باليقين المخيف والليلة دون سواها !
إنه يجيد انتقاء الفرص .. وقد حانت أكثر فرصه سنوحا ومواتاة !
قبل منتصف الليل بنصف ساعة كانت "جيهان" لا تزال عاكفة على استذكار دروسها ومراجعة مادة اللغة العربية سطرا سطرا، وكلما أوغلت في المقرر شعرت بالارتياح، وأحست بأنها مسيطرة تماما على المادة وواصلة لأدق تفاصيلها وأسرارها .. غمرتها الراحة وقد أطمأنت إلي أن المادة الأولي لن تخذلها غدا وأنها ستبلي فيها بلاء حسنا .. لكن عارضا سخيفا جاء فأقتحم ليلتها المفعمة بالقلق والترقب والأمل .. أنقطع التيار الكهربائي فجأة !
فبينما كانت الفتاة الطموح تعكف على مراجعة أحد دروس القراءة الأخيرة وجدت نفسها في الظلام فجأة وقد انهمر سواد كثيف فوق رأسها المنحنية على كتابها ..
رفعت "جيهان" رأسها والسخط العميق يغمرها .. سبت وزير الكهرباء - الذي لا تعرف اسمه- دون وعي منها ودعت الله أن يرزقه بشلل لا يبرأ منه أبدا .. فقد كانت تلك هي أرذل لحظة يختارها مسئولي الكهرباء في مصر

لقطع التيار عن المواطنين بينما آلاف وآلاف الطلبة يستعدون لامتحان الشهادة الإعدادية غدا.
نهضت "جيهان" من فوق فراشها ممسكة بالكتاب الذي كان يسترخي منذ ساعتين متواصلتين على حجرها وسمعت صوت أباها من الخارج يناديها بإصرار:
-" "جيهان" خليكي عندك .. هجبلك الكشاف ! "
طبعا كانت تلك لفتة طيبة من الأب تجاه ابنته التي تكافح من أجل بناء مستقبلها وقد قدرتها هي حق قدرها، وهمت بأن ترفع صوتها شاكرة أباها لكن فكرتها قمعت على الفور .. فمن وسط طيات الظلام ظهر شيء غير محدد المعالم الخارجية بوضوح وأطبق يده على فمها عندما وجدها تهم بالصراخ وقال لها بأنفاس حارقة لفحت جسدها كله:
-" الآن تأتين معي لنجوب قفار المحبين سويا ! "

*****

حملت "هناء" الكشاف الصغير إلي سلفتها في غرفتها .. كانت زوجة الأخ لا تكن الكثير من المحبة والولهة تجاه أخت زوجها النحيفة، خاصة وقد سبق للأخيرة أن رفضت الزواج بأخيها بإصرار لمجرد أنه متزوج ولديه نصف دستة من البنات يرغب في مخاويتهن بولد من زوجة أخري!، لكن وجود الرجل الكبير -الحاج "إمبابي" الذي يفرض

سطوته علي البيت ويخضع الجميع لأمره- أجبر زوجة الابن على إظهار المودة الحارة لسلفتها التي تكرهها كراهية العين للرمد، لكن "هناء" عندما حملت الكشاف الكهربي كارهة وأخذته لتستنير به "جيهان" وهي تذاكر في غرفتها الموصدة عليها دائما، وفتحت الباب وأخذت تنادي على الفتاة بغيظ مكبوت:

-" "جيهان" .. "جيهان" خدي الكشاف ! "

لم تسمع ردا فوريا على ندائها فجزت على أسنانها غيظا، معتقدة أن سلفتها تتعمد عدم الرد من أول مرة .. لكن على ضوء الكشاف القوي عرفت "هناء" المغتاظة معلومة غريبة أن سلفتها ليست موجودة بالغرفة أصلا لترد عليها أو لا ترد !

أحدت زوجة الأخ عينيها ومستعينة بضوئها الصناعي بدأت بتفحص أركان الغرفة المتسعة لعل الفتاة تكون جالسة علي فراشها كعادتها، أو واقفة عند دولابها، أو تقف بالقرب من النافذة .. لكن الأخيرة لم تكن في أي من المواضع الثلاثة ولا في أي ركن آخر من أركان غرفتها !

هل تكون قد ذهبت إلي الحمام ؟!

في هذه العتمة ؟!

ممكن جدا .. وهذا ما خطر ببال "هناء" فتراجعت، حاملة كشافها، إلي الخارج وبدأت تخطو ناحية الحمام الموصد

وهي تنادي بصوت خفيض محاذرة أن تصطدم بشيء في طريقها المليء بالعثرات:

-" "جيهان" .. "جيهان" .. أنت هنا يا أختي ؟! "

لكن لا رد يأتي من الحمام كما لم يأتي رد من قبل من غرفتها .. فأين ذهبت الفتاة إذن .. أين ذهبت ؟!

*****

قادها من ذراعها بقسوة غير مبال بمقاومتها وتمنعها .. كان يمسكها بقوة هائلة مستميتة عليها بطريقة جعلت كتفها يكاد ينخلع من موضعه والألم يدير رأسها ويكاد يدفعها إلي الصراخ ..

كان " شمشقيق " قد بدأ يفقد صبره على تلكم الفتاة البشرية السخيفة ؟!

إنه لم يجرب الرفض من قبل.. لم ترفضه أية واحدة من اللائي أرادهن، زوجات أو خليلات، حتى بنات البشر لم يصعبن عليه مطلقا، فكم أقتني منهن من غويات وفاتنات وساحرات و صاحبات مصلحة !

لكن تلك الفتاة .. تلك الفتاة الناحلة الضعيفة الخائرة هي من تتمنع عليه في نهاية المطاف فبأي شيء يتلهي إذا فشل في الفوز بمطلب صغير تافه كهذا ؟!

كانت تنوح وتتوسل بينما هو يقودها عبر قفر هائل مخيف لم تري له مثيلا من قبل فوق أديمه انتصبت عدة

قمم مستدقة رمادية غريبة كانت أطرافها غائبة وسط سحابات من الضباب المنخفض الكثيف الذي يقطر برودة وارتعاشا مخدرا .. جرها مسافة طويلة عبر القفر وسط كثبان رطبة خالية ومرت في طريقهم مغارات وكهوف خاوية تتكاثف الظلمة و البرودة داخلها كسحابات الدخان.. و أخيرا وصلوا إلي بقعة منيرة دافئة !

هناك وجدوا قوما غرباء عاكفين على شيء يفعلونه .. أقترب منهم سائقا إياها بقوة نحو مجتمع القوم وأوقفها بالقرب منهم ثم بدأ يحادثهم .. لم تفهم الرطانة الغريبة التي كان يكلمهم بها ولم يتلفت أحد منهم إليه أصلا بل ظلوا متحلقين عاكفين علي ما يقومون به دون إيلاء أي اهتمام للوافدين الجديدين .. ولم تستغرق الفتاة وقتا طويلا لكي تدرك ما يقومون به .. لقد كانوا، ببساطة، يأكلون !

كانت هناك في وسط الحلقة جثة ضخمة منزوعة الجلد، ولم يكن واضحا نوعا المخلوق الذي يمتلك مثل هذا الجرم الهائل، والقوم حولها يمزقونها بأسنانهم القوية ومخالبهم البارزة الضاربة ويلتهمونها نيئة قطعة قطعة ويزدردون اللحم الدامي كالوحوش دون مضغ أو تشدق بالطعام الذي كان يسير من أفواههم إلي أجوافهم مباشرة !

صعقت "جيهان"، واستولت عليها أحاسيس هائلة بالاشمئزاز، وزاد من الأمر سوأ أن ذلك المخلوق الذي قادها إلي هنا رغما عنها جلس وسطهم وأخذ يشاركهم الطعام والصمت الكامل يخيم عليهم، بينما ظلت هي واقفة هناك تشاهد كل هذا بعينين مفتوحتين مرتعبتين !
استبدت بها رغبة في التقيؤ وشحب وجهها وأمسكت معدتها وصدر عنها صوت الترجيع المميز .. حينئذ ألتفت الجميع نحوها دفعة واحدة !

*****

كررت "هناء" ندائها لاسم أخت زوجها، دون أن تسمع أي رد عليها .. وقفت حائرة للحظة والكشاف بيدها وفجأة سمعت صوتا غريبا آتيا من الغرفة التي بارحتها لتوها .. صوت شهيق وخربشة غريبة وعالية ومكتومة !
بحذر ووجل مشت "هناء" نحو الغرفة الغارقة بالكامل في ظلام سرمدي مخيف لكنها لمحت ضوء متراقصا ضعيفا يترنح هناك .. خطت فوق عتبة الحجرة المنخفضة المزينة بسجادة حمراء صغيرة مزينة برسوم ذهبية، لم يكن لونها ولا رسوم نقشها بادية في الظلام، لكن المرأة الشابة كانت تراها بعيني رأسها .. هناك وجدت الحجرة على حالها كما تركتها لكن شيئا واحدا فقط زاد عليها وأخل بنظامها السابق .. فقد كانت "جيهان" هناك !

كانت واقفة أمام المرآة تحيط بها الحلكة الكاملة واقفة مسدلة شعرها الطويل وتمشطه بروية وهي تتأمل نفسها بعمق وتتمتم بكلمات غامضة متلاحقة دون توقف، لم تستطع "هناء" أن تفهم منها حرفا واحدا أو تفسره. لكن .. ورغم الظلمة المحيطة بها، إلا أن حدودها الخارجية كانت واضحة على الضوء .. الضوء الأحمر العميق المنبعث من عينيها !

نظرت "هناء" إليها دقيقة دون حراك .. ثم سقط الكشاف من يدها متحطما على الأرض ودوت صرخاتها المستنجدة !

*****

ألتفت الجميع إليها فتراجعت إلي الخلف مذعورة .. ذلك أن وجوههم كلهم كانت مثيرة للذعر والاشمئزاز !

وجوه نحيلة مستطيلة بذقون طويلة ناتئة لها حافة بارزة حادة تكسوها شعيرات قليلة صلبة غليظة تبدو كضفيرة مكونة من شعرة واحدة .. وبشرات شاحبة بألوان خضراء باهتة.. وجلود كالحة مقشرة.. أفواه فاغرة واسعة مخيفة.. وأعين جاحظة تلمع بالدم وتحتل وحدها نصف الوجوه دون نقص .. الأكثر إثارة للفزع هو أنهم كانوا يضحكون !

التفتوا إليها بأعينهم الدامية وأفواههم الملطخة القبيحة تلوك أشياء دون انقطاع ويحدجونها بالنظر وكأنها طرفة أو تحفة غريبة ينظرون إليها مستطلعين لحظة ريثما

يعودوا إلي ما كانوا يفعلونه قبل أن يعكر تدخلها المفاجئ صفو ليلتهم ذات الرائحة الكريهة !

لكن رفيقها، الذي كان منظره أفضل كثيرا من مناظرهم، قال لها وهو يدفعها دفعا وسطهم:

-" هؤلاء هم "الجشروم" الأرصاد.. خدموا جدودك منذ زمن طويل.. هذا "منسباروح" خديم ورصد جدك الأكبر "توت عنخ آمون" ! "

نظر إليها مخلوق مقزز بشع يبدو بحجم الثور ولها عينان أضخم من أى أحد آخر سواه والكارثة أنه كان له ذيل غليظ يلتوي وهو جالس تحته ويظهر من بين ساقيه المعقودتين أعقاب قدميه المدببة ذات المخالب والأصابع الطويلة المرعبة .. ابتسم المخلوق لما أعتبره تقريظا وأحب رفيق "جيهان" الذي قادها إلي هنا أن يداعب غرور ذلك المخلوق المخيف القوي فقال مترنما بنفاق ظاهر:

" إنه قوي أمين .. هذا حرس المقبرة الذي دوخ من جنسكم الآلاف وقتلهم غيلة وبين يديه وضع فراعينكم اعتي كنوزهم فصانها ولم يقدر أحد على الاقتراب منها ولو خطوة واحدة ! "

طبعا كانت "جيهان" -التي لم تكن جاهلة جدا بالأمر كما يتخيل- تستطيع أن ترد عليه قائلة أن هذا الحارس الراصد المخيف لو كان يساوي قرشا واحدا لما كانت كنوز "توت

عنخ آمون" تقبع تحت أنظار ملايين الأعين المتفحصة كل يوم خارج مصر وداخلها، لكنها آثرت السلامة ولاذت بالصمت .. أما "شمشقيق" فقد فاجأها بجملة جعلت أمعائها تتقلص:

-" والآن يا عروسي .. هذا هو قفر المحبين ويمكننا أن نعقد قراناً مقبولاً الآن وفوراً ! "

تراجعت "جيهان" إلي الخلف كاتمة صرخة توشك على أن تفلت من فمها ..

كانت تعرف أنها في موقف خطر .. موقف يتحتم عليها فيه أن تحسن التصرف أو تترك نفسها للذعر يفقدها صوابها ويضيعها تماما. لذلك فلم يكن هناك بديل عن التعقل .. لا بديل عن التعقل وحسن تدبر الأمور !

نظرت إليه برعب، أحسنت صنعا فدارته سريعا، وهو يقترب منها وعلى وجهه القبيح علامات السعادة:

-" ستكونين لي .. ستبقين معي ! "

-" لا ! "

أفلتت الكلمة من فمها قبل أن تلحق كبتها وقمعها .. ترك الملتفون طعامهم للمرة الثانية وألتفتوا إليهما صامتين .. رنت ضحكة مائعة من مخلوقة لها سمت شرير مخيف لا يتخيل أحد أن تصدر مثل تلك الضحكة من مثل هذا الجرم الحيواني الهائل وهتفت بصوت مزدري معسول:

إنها ترفضك يا "شمشقيق" .. كم تعاني الرفض من الآدميين أنت يا أيها المارد الصبور ! "

جز رفيق "جيهان" على أنيابه وصرخ في المتكلمة بدون دعوة:

-" أخرسي! "

ثم نظر إلي "جيهان" بعينين يلتمع فيهما الغضب والحنق نارا قاذفة شررا كالجبال:

-" أهذا حق ؟! "

لم يعطها الرصد القبيح فرصة للرد أو لإبتلاع ريقها الجاف فهتف في غلظة بادية:

-" لن تقبلك إنهم يكرهوننا .. ويظنون أنهم خيرا منا ! يقيدوننا بأسحارهم و يرغموننا على خدمتهم ثم يلقبوننا بالشياطين و العفاريت .. سحقا لهم ! "

-" هش .. أسكت أنت ! "

من الواضح أن هذا المحب الجني شديد البأس إذ تواتيه الجراءة علي إسكات مثل هذه الكتلة المخيفة والصياح في وجهها .. لكن الموقف لم يكن قد أنجلي بعد، فثمة رد سريع مطلوب من الفتاة الآن .. هل تتزوج ذلك الغوي الشديد البأس الآن ؟!

هل تقبل على تلك التجربة .. هل تملك رفضا أو تستطع فرارا !

-" دعني أرجع إلي بيتنا ! "
قالتها متوسلة وهي توشك علي البكاء .. رنت ضحكة سائبة مرة أخري من طرف المخلوقة التي أمرت بالصمت فيما قبل لكن "شمشقيق" لم يبالي بها هذه المرة .. وبينما لاذ الجميع بالصمت تفرس هو للحظات في وجه "جيهان" النحيف المرتجف وسألها بقسوة:
-"لم تودين العودة.. ستبقين معي هنا في أرضنا وهذا أمر!"
لكن الفتاة كان لها رأي آخر:
-" لدي امتحان غدا صباحا .. أرجوك دعني أذهب للامتحان! "
كاد "شمشقيق" يضحك .. هو يحدثها عن هجر أرض الأنس كلها وهي تكلمه عن امتحان !
لكن الفتاة كانت مصرة ودعمت رجاءها بذرف الدموع الحارة:
-" أرجوك .. أرجوك دعني أذهب الليلة ! "
نظر إلي الفتاة ممعنا فيها النظر وعيناه تلمعان بشر حبيس يود أن ينطلق من عقاله ليطبق علة عنقها الناحل الرقيق الذي يود في نفس اللحظة أن يلمسه برفق وغرام !
كم يتمني أن تبادله الوله والغرام .. إنه لا يريد أن يأخذها قسرا وغصبا بل يود أن يتبادل غراما مع إنسية من نسل آدم ولو لمرة واحدة في عمره الطويل المديد !

والآن ها هي ذي تبكي !
بالفعل كانت "جيهان" قد وصلت غاية تحكمها في أعصابها وقدرتها على كبح نفسها الممزقة فبدأت تبكي بحرقة والدموع تسح علي وجهها الأسمر البريء كطوفان بحر عرم.. لكن هل سيتركها ترحل ؟!
-"وإذا تركتك تعودين .. فهل تأتين معي ثانية وقتما أشاء!"
طوق النجاة قد ألقي إليها فالتقطته الفتاة الأريبة بسرعة ولم تدعه يفلت:
-" نعم .. نعم .. فقط دعني أنهي امتحاناتي ! "
بدأ يلين وقد أدركت هي ذلك .. وأنصرف الآخرون عنهما وتجنبوا التداخل بالأمر فصار كل شيء أسهل وأيسر.
-" نعم .. سأعود معك ثانية وقتما تشاء ! "
لاح القلق والتفكير والتردد على وجهه.. ليس شفقة على مستقبلها الدراسي الذي يوشك أن يضيع بل لأنه يعلم، ويعلم جيدا أيضا، أنه ليس بوسعه التزوج بها رغم أنفها .. يمكنه أسرها والاحتفاظ بها حبيسة لديه مدي الزمان أو حتى تستوفي عمرها البشري الضئيل وتموت .. يمكنه إخفائها في جب من الأرض لا تبارحه مدي ما تبقي لها من حياة .. لكن ليس بوسعه ولا بمقدوره الاقتران بها دون إرادتها الحرة الكاملة .. قوانين الجان تمنعه من ذلك وهو

يعرف ذلك جيدا .. بينما الفتاة للأسف لم تكن على علم بذلك !
ولذلك فليس أمامه إلا أن يتركها ترحل برغبته .. حتى تعود إليه مرة أخري برغبتها هي وساعتها قد يمكنه العقد عليها والتزوج بها والاحتفاظ بها أبديا !
نظر إليها بعمق .. رأي الخوف يلوح في عينيها ورأي الوعود الزائفة تبرق هناك كذلك وتيقن من أنها لن تعود معه راغبة أبدا.. لكن فليسمح لها بالعودة وليمنحها شيئا يجعلها ترغبه مثلما يرغبها وتحل رضاءها عليه وليظهر لها مدي قوته ومبلغ جبروته !
أفتر ثغره القبيح عن محاولة رسم ابتسامة وقال لها مدللا:
-" تعالي معي .. سأعيدك وسأساعدك في كل ما تحلمين ! "

*****

فتحت عينيها لتجد نفسها على فراشها.. كانت ممددة هناك مفككة محلولة الأوصال بلا حول ولا قوة تحيط بها الأنوار الساطعة .. فقد عاد التيار الكهربي أثناء غيبتها-القصيرة وسطعت الأضواء الصناعية في كافة غرف البيت الكبير. وفي حجرة الجلوس، التي أنارت ثانية وأطفأت فيها الكشافات، كان هناك مشهد مثير للذعر والسخرية .. كانت "هناء" جالسة هناك تلطم وتولول وهي تدعي أنها

شاهدت سلفتها واقفة أمام المرآة تمشط شعرها ويشع نور أحمر من عينيها المخيفتين:

-" والله العظيم .. وحياة عيالي شوفتها بعنيا ! "

ضحك "خالد" ورد عليها مستهزئا:

-" شوفتيها إزاي والنور كان قاطع والدنيا ضلمة يا حاجة .. أستهدي بالله كده وقولي يا رحمن يا رحيم ! "

وتدخل الأب قائلا بحزم:

-"تلاقيه كان بيتهيألك يا بنتي .. استعيذي بالله من الشيطان الرجيم وقولي أعوذ بالله وأنت تنسي كل حاجة !"

لكن "هناء" كانت مصرة على رأيها وقالت وهي تشعر بغيظها يستعر أكثر وأكثر:

-" والله العظيم .. والنعمة شوفت النور الأحمر طالع من عنيها زي ما بقولكم .. والله العظيم ! "

لكن زوجها "خالد" نهرها بشدة .. لم يكن "خالد" يعنيه كون زوجته صادقة في دعواها أم أنها تتخيل، فقد كان يخاف أن يتم الربط بين ما تدعيه وبين أعمال السحر التي يتم عملها في المخزن أسفل البيت كل ليلة من أجل فتح هذه الدفينة الأثرية اللعينة .. وتحقق ما يخشاه بالفعل حينما قالت زوجة الأب بثقة وإصرار:

-" والله كله ده بسبب المحروقة اللي تحت دي .. ما تردموها يا حاج خلينا نرتاح بقي ! "

والحقيقة أن الحاج كان باله منصرفا تماما عن هذا الحوار كله فقاطع استرسالهم قائلا بقلق:

-" آمال فين "جيهان" ما سمعناش صوتها يعني من ساعة النور ما قطع !."

وأشفع الأب إبداءه لقلقه بنهوضه من مكانه فورا وتوجهه نحو غرفة ابنته ..

لم يجدها هناك .. كانت الغرفة مرتبة وكتب ابنته تفترش منضدتها وسريرها .. لكن البنت نفسها لم يكن لها أثر بالغرفة لكن صوت انسياب ماء من صنبور كان قريبا لدرجة الأب أيقن بأن ابنته لابد أنها في الحمام .. وبالفعل غادر الأب غرفة "جيهان" وسار متراجعا بضع خطوات حتى صار بالقرب من باب الحمام فنادي ابنته، على غير عادته:

-" أنت هنا يا "جيهان" ؟! "

مرت لحظة صمت ثم جاءه صوتها من الداخل واهنا مختنقا يرد بصوت منخفض:

-" أيوه يا أبوي ! "

أرتاح الأب نفسا وهم بالعودة إلي حيث تجلس بقية الأسرة في غرفة الجلوس ولكن وهو في طريقه عائدا طرق ذهنه خاطر غريب جعله يظن للحظة أن الصوت الذي سمعه من داخل دورة المياه لم يكن صوت ابنته مطلقا !

لكن بالحقيقة أنه كان صوت "جيهان" بالفعل وإن كان مختلفا كثيرا عن صوتها العادي الذي تعود كل الناس على سماعه منطلقا من حنجرتها منذ أن غلبت بكم الطفولة ونطقت للمرة الأولي في حياتها .. فقد كان صوتا مختنقا مبحوحا مذبوحا .. فلم تصل الفتاة في أى يوم من حياتها إلي ما وصلت إليه الليلة من شعور بالذعر والاضطراب.
كانت قد هرعت، فور أن أفاقت في غرفتها، إلي الحمام وأغلقت الباب على نفسها جيدا .. غسلت وجهها جيدا ثم جففته بفوطتها الخاصة المعلقة هناك أبدا وبعدها وقفت أمام المرآة لتتأمل كيف صارت تبدو ..
ازداد وجهها الأسمر شحوبا وتكونت هالات سوداء بارزة حول عينيها اللتين اتسعتا ولمعتا لمعانا عميقا .. بينما انطفأت معالم وجهها الباقية تقريبا، فذبلت وجنتاها تماما وبرزت عظام صدغيها وزاد أنفها خسوفا حتى كاد يختفي وسط بشرتها الذابلة المترهلة، وتكونت بقع سمراء في أنحاء متفرقة من وجهها بطريقة متمازجة غريبة مع لونها الشاحب الميت .. لقد صارت مبرقشة باللونين الشاحب والأسمر وكأنها جلد نمْر !
لكنها حصلت على مهلة من ذلك الشيء .. مهلة قصيرة ويجب أن تتحامل على نفسها حتى تحقق آمالها وتستطيع الإفلات من بين يديه !

ورغم ذلك فإنها لن تنسي هدفها الكبير .. لن تنسي حلمها وستحققه ولو على جثتها ومهما تحملت في سبيله !
وضعت رأسها تحت صنبور الماء وغمرت رأسها بالماء وفكت شعرها ونثرته ليتشرب الماء .. ظلت تحت الماء لبرهة حتى استفاقت لنفسها ثم أغلقت الصنبور وعزمت على المضي إلي غرفتها .. فلم يبق إلا ساعات على موعد الامتحان !

*****

بعد أن هجع الجميع وأخلدوا للنوم بقي "خالد" وحده مستيقظا وجالسا في المندرة بأسفل البيت .. أرادت زوجته أن تبقي معه لكنه زجرها وقال لها آمرا بغلظة:
-" روحي نامي أنت .. شوية وهحصلك ! "
لكن "هناء" كانت تعرف أنه يكذب .. فكل ليلة تقريبا يحدث نفس الموقف، يظل بمفرده ليلا بعد أن يذهب الجميع لأسرتهم، وبعد أن يظنها هي أيضا نائمة يتصل هاتفيا بشخص ما ثم يستقبله في المندرة ولا يلبثان أن يدخلا معا إلي حيث تقبع الحفرة المرصودة اللعينة ويبقيا هناك حتى الفجر. كان "خالد" يجري محاولات يومية، كل ليلة، من أجل فك رصد الدفينة القابعة تحت منزلهم والدخول إليها ومليء يديه من كنوزها وذهبها .. لكن سائر محاولاته، ومحاولات الجهابذة اللذين لجأ إليهم

لمساعدته في هذا الشأن، باءت كلها بفشل صريح ذريع .
وبقيت الدفينة مغلقة مكتومة عصية على الفتح أو الفك أو الاختراق !
لكنه يضع أملا كبيرا على الليلة بالذات .. فقد تجشم عناء هائلا ومبلغا كبيرا من المال ليحصل على ذلك الرجل المغربي الذي قيل له أنه الوحيد القادر على كسر أرصاد اليهود !
لقد أجمعت آراء الخبراء الذين عاينوا موضع المقبرة العاصية أنها لابد دفنة تخص يهوداء وليسوا بفراعنة ولا مصريين ولا مسلمين ولا نصارى، وأنهم رصدوها وأغلقوها بسحرهم الشيطاني .. طبعا كان من الواضح لـ"خالد" ولأبيه ولأخيه "بدر" حينما كان يتدخل في الأمر أحيانا قليلة، أن سر هذه المقبرة مستغلق على جميع من حاولوا فك الرصد الموضوع عليها وفتحها .. لدرجة أنهم حتى لم يستطيعوا التوصل إلي معلومة بسيطة وتحديد إلي أي حقبة تنتمي تلك المقبرة وهل هي فرعونية أم غير ذلك !
لكن الأمر الوحيد الذي بات واضحا للعيان تماما .. أن هذه مقبرة مهمة للغاية وبها من الكنوز والمهمات ما دفع أصحابها الغابرين إلي وضع حماية مزدوجة عليها وإغلاقها بطرق متعددة تبين مدي أهميتها بالنسبة لهم ومدي ضخامة الكنز الذي تحويه !

وتحت تأثير هذا الأمل الكبير تحمل "خالد" لمفرده -بعد أن نفض أبيه يده من الأمر جزئيا وعاد للاهتمام بتجارة الأسمنت التي شريك فيها مع أحد أثرياء القرية- مشاق هائلة وتجرع مرات لا تحصي مرارة الفشل والخيبة كلما أستأجر أحدهم -ودفع له مقدما من جيبه الخاص- ثم وقف عاجزا مغلول اليد أمام قوة تلك الأرصاد الهائلة الموضوعة على تلك المقبرة الغامضة .. لكن الليلة ليست ككل ليلة وهو لم يتحمل تكلفة إحضار شيخ مغربي ضليع في تلكَ الأمور عبثا !

كان ابن الحاج "إمبابي" قد ضرب لصديقه "يوسف أبو القطيبي"، رفيقه في لعبة التنقيب والبحث عن الكنوز القديمة المدفونة، ومرافقه الذي أحضره الأخير بمعرفته، موعدا بعد انتصاف الليل بقليل .. فلم يكن يريد أن تقع عين أحد من الجيران المتلصصين المتداخلين في كل ما يعنيهم وما لا يعنيهم كذلك، على شخصين داخلين لبيت الحاج "إمبابي" أحدهما مغربي -ذو منظر غريب ، بعد منتصف الليل لئلا يبدأون يقولون ويعيدون ويزيدون ويبلغ الغائب منهم الحاضر ولا يخلص هو ولا أبيه من الكلام والتساؤلات المتطفلة ..

أنتظر "خالد" وحده في الغرفة الكبيرة، وكان يعرف انه لا أحد سواه مستيقظ الآن في البيت سوي أخته "جيهان"،

التي تعكف علي مذاكرة دروسها، لكن لا بأس فهي ليست من النوع الحشري ولن تتدخل فيما لا يعنيها وهي أصلا ليست متفرغة لذلك .. وبعد انتصاف الليل بأربعين دقيقة سمع "خالد" صوت هاتفه المحمول يرن الرنة الخاصة التي خصصها لرفيقه في الحفر والتنقيب "يوسف"، فقد حذره من رن جرس الباب حتى لا يستيقظ علي وقعه أحد من أهل البيت ثم يبدأ تحقيق طويل و(س وج)، وقد ينمي الأمر إلي مسامع أبيه الذي أنصرف تماما عن مسألة نقب هذه المقبرة الرابضة تحت بيته ونيل كنوزها و ذخائرها .. أسرع "خالد" إلي الباب وفتحه، فقد كان يعرف أنهما ينتظران أمامه. وأمام البيت كانا هناك بالانتظار .. "يوسف"، مرتديا قميصا وبنطالا نظيفين مكويين، وبرفقته رجل ضخم الجثة يرتدي جلابية صعيدية مقلمة عادية .. أندهش "خالد" لمنظر الرجل الذي بصحبة صديقه فسأله فورا وبلا صبر:

-" آمال فين الشيخ المغربي ! "

فأجاب الرجل ذو الجلباب فورا قائلا بصوت عميق مليء:

-" صباحك خير يا خيي ! "

كان الرجل يتحدث بطريقة عادية لا تختلف كثيرا عن أي رجل صعيدي قح لكن في لكنته شيء غريب ملتوي جعل "خالد" يفهمه ولا يفهمه في نفس الوقت .. لكنه أدرك فورا

أن هذا هو الشيخ المغربي .. أوسع لهما فدخلا.. ولم يدخلا البيت بأيدي فارغة بل كان "يوسف" يحمل عدة أكياس ورقية صغيرة أما الضيف المغربي فقد كان يحمل على ذراعيه عباءة ضخمة مطبقة بعناية شديدة .. دخل الضيفان بدون أن يحدثا أى نوع من الضوضاء وقادهما "خالد" إلي المندرة حيث وقفا فيها للحظة:

-" أتفضلوا .. تشربوا شاي ! "

هم "يوسف" بإبداء الموافقة لكن الضيف هتف بحزم وشدة ناعمة:

-"مفيش وقت أخي "خالد" ورينا مكان المصلحة خلينا نفتح ونخلص قبل ما تطلع علينا الشمس ! "

فرح "خالد" لسماعه هذه الكلمات، لكنه تساءل بقلق مفاجئ:

-"هو ممكن الموضوع يطول في أيدك لحد الصبح يا شيخ؟!"

لكن الشيخ رد بحزم منهيا المناقشة كلها أساسا:

-" الخير اللي ربنا كاتبهولنا يا خيي بنشوفه وقت ما ربنا كاتب! "

وبدون كلمة واستجابة لنظرة محددة المعني قادهما "خالد"، متقدما إياهما، إلي المخزن عبر المدخل الواقع

داخل البيت، ومضي الشيخ المغربي أولا إلي الداخل .. ثم تبعه الآخران وهما يتمتمان بالدعوات والرجاءات !

*****

جففت "جيهان" وجهها المبتل جيدا ثم مشطت شعرها على عجل.. بعدها ارتمت على فراشها متعبة منهوكة القوي وتحاملت على نفسها وأمسكت بكتاب مادة اللغة العربية وقررت أن تحاول، على الأقل تحاول، التغلب على كل ما تعانيه واستذكار بعض الدروس لعلها تنجح في تخطي أول امتحان لها غدا .. وفتحت الفتاة الكتاب لكنها فوجئت بشيء بالغ الغرابة .. لقد محيت الكلمات المطبوعة من فوق صفحات كتابها التي لم يتبقي منها سوي وجه أبيض خاوي من نقطة حبر واحدة !

ذهلت "جيهان" من شدة غرابة هذا الأمر وأخذت تقلب صفحات كتابها مرارا وتكرارا، وتفرها من الصفحة الأولي حتى الأخيرة، ثم تكر عائدة من الصفحة الأخيرة، في رحلة مريرة شاقة، إلي الأولي لتجد نفسها أمام النتيجة نفسها .. لم تعد هناك كلمة واحدة مكتوبة في جميع صفحات كتاب الوزارة الرسمي التي لم تحتاط للأمر كما يجب ولم تستخدم حبرا قادرا على مقاومة قوة الجان الموكلين برصد الدفائن الأثريةّ!

ألقت الكتاب من يدها، وأسرعت إلي منضدتها المكدسة بالكتب والمذكرات والملازم وانتزعت ملخص اللغة العربية الخارجي من بين صفوف الكتب وفتحته بلهفة وكلها أمل.. لكن أملها سرعان ما خاب إذا وجدته كأخيه -كتاب الوزارة الرسمي- ذو ورق أبيض خاوي من غير سوء !
لا نقطة حبر واحدة .. كادت "جيهان" تصاب بانهيار عصبي وهى تنتزع كتبها واحدا وراء الآخر، العلوم ثم ملخص اللغة الإنجليزية ثم الدراسات ثم الرياضيات وحتى كتاب التربية الدينية، كلها .. كلها كانت خاوية من أية كتابة أو ملاحظات !
وقفت للحظة مكتومة الأنفاس وسط أنقاض حلمها الذي لم يتقوض ويتهدم فقط .. بل ذاب وساح وتلاشي أيضا .. وقفت غير قادرة على استجماع نفسها أو حتى على التنفس ثم أحست وكأن بناءها هي نفسها ينهار .. فسقطت على الأرض ولم تتحرك من موضعها طوال الساعات المتبقية من الليل !

*****

جلس الشيخ المرجو منه الأمل أمام الدفينة مباشرة .. وخلفه جلس "يوسف" و"خالد" ينتظران كل حركة يقوم بها وكل كلمة يتفوه بها، إن حدث وتفوه، مضت لحظات كان خلالها المدعو شيخا هذا يتأمل في صبر وحنكة شكل

الدفينة والأرض المحفورة حولها، ثمّ مد عينيه إلي أعلي متأملا أسقف البيت وأعمدته وجدرانه من أعلاها إلي أسفلها .. راقبه "خالد" متصبرا حتى بدأ أخيرا يتحدث بلغة مدغومة مختصرة، طالبا من "يوسف" أن يعطيه بعض الأغراض التي أحضراها معهما .. كان أحد الأكياس الورقية يحوي ملحا خشنا بكمية كبيرة*، وتبعا لإشارة الشيخ سلمه الأول له .. مد يده وهو يتمتم بكلمات مبهمة وأخذ يخرج الملح حفنات حفنات ووقف وأخذ يدور حول الأرض نصف المردومة راسما دائرة كاملة حول مكان الحفر .. راقباه بصمت وكلهما أمل، فقد ،كان "يوسف" يأمل الحصول علي نصيب سخي من الأموال والكنوز التي ستجود بها الأرض على صديقه إن أفلحت مساعدته ومكنتهم من فتح الكنز المرصود الذي استعصي على الجميع .. وقف الشيخ وسط الدائرة علي كثب من الحفرة الزائلة وأخذ يردد كلمات وكلمات، ومن بين شفتيه أندفع تيار من الجمل والعبارات المتراكبة المتراصة ميز فيها "خالد" بصعوبة بالغة ما بدا له آيات قرآنية تقرأ بطريقة معينة، وتمتمات وتعويذات واستغاثات لم يفهم من معظمها حرفا واحدا، ولا "أبو القطيبي" نفسه الذي أحضر الضيف المغربي كان يفقه حرفا مما يقوله الشيخ إلا أن أحدا منهما لم يهتم.. لكن تيار الكلام الدافق غير المفهوم لم

يستمر طويلا على أية حال.. فقد فاحت فجأة رائحة خبيثة جعلت الشيخ يلوذ فترة بالصمت.. لقد بدأ دخان أبيض يتصاعد من دائرة الملح الخشن حاملا رائحة بالغة الخبث و النتانة.. كان الملح الخشن يحترق أمام أعينهم !

صمت الشيخ فجأة وكف عن مواصلة كلامه ثم زوي ما بين حاجبيه وحدق بدهشة في الملح الذي يحترق أمامه .. لكن الأحداث لم تمهل أي منهم للإصابة بالقدر اللائق من الدهشة .. فقد أندفع من بقايا فتحة الدفينة الأولي سرب من ذباب أزرق ضخم شرس أخذ يصدر طنينا مزعجا وأنثني مهاجما الرجال الثلاثة بعنف .. أندفع الرجال الثلاثة، بما فيهم الشيخ المغربي، محاولين الابتعاد عن مرمي هجمات الذباب الضخم وأخذ الشيخ يحاول طرد هذا الذباب مستخدما عددا لا يحصي من الجمل الطويلة المتنوعة النغمة والطول والقصر لكن دون فائدة .. بل بدا أن محاولاته لإبعاده زادت ذلك الذباب، الذي بدا كأنه يعقل ويفهم ما يدور حوله، يزداد شراسة وعنفا .. فأتجه بقوة نحو الشيخ وأحاط به وهاجمه ككتلة واحدة وأنقض على وجهه ويديه وكل المناطق المكشوفة من جسده ممزقا إياها بقسوة غير عادية .. صاح الشيخ رغما عنه وهو يتعرض لهجمة لم يخبر مثلها من قبل، أما "خالد" و"يوسف" فقد تملكهما الفزع وهما يشاهدان هجمات

الذباب الناري ذلك ويعانيان من عضاته ووخزاته الحارقة العميقة وهما يضطران إلي كتمان صراخاتهما المستغيثة الملهوفة، لكن خيطا من الأحجار المقذوفة بقوة بدأ يندفع كسيل العرم من فوهة الدفينة منتشرا في كل الاتجاهات مسببا حالة هلع لا توصف للثلاثة.

ودون أن يداهمه أي إحساس بالخجل أندفع الشيخ المغربي مغادرا المكان وهو يسب ويلعن بقوة، غادر وتبعه "خالد" الذي يمسك وجهه المسود المليء بالبقع الزرقاء المنتشرة، وقاده هو و"يوسف" إلي المندرة التي كانت خالية لحسن الحظ في تلك الساعة .. كان الشيخ يجفف وجهه ويديه وهو يشعر أن سائلا لزجا سميكا ينساب علي جلده ويسير فوقه وكأنه سرب من النمل.. ورغم أنه تأكد من عدم وجود شيء على جلده أو بشرته إلا أنه استمر في دعك جلده وحكه بجنون .. كان منظر الرجل مزريا ومثيرا للشفقة في الحقيقة ولم يكن منظر الآخرين بأقل سوء منه! خيم صمت مضطرب قلق على رؤوس الثلاثة .. مضي "خالد" وصديقه يحدقان في بعضهما ويتبادلان حوارا صامتا صاخبا بنظرات الأعين (من تحت لتحت) بينما أنهمك الشيخ المغربي في تعديل هندامه واسترداد ما تبعثر من هيبته السحرية:

-" أعوذ بالله .. مش رصد عادي ده .. ده عامر مكان يريد المال لروحه ! "

بهت "خالد" ولم يفهم حرفا، لكن "يوسف" أشار إليه أن يصمت ثم وجه سؤالا سريعا إلي الشيخ لم يفهم منه حرفا لكن الأخير أجابه بنبرة واضحة:

-" دم ! "

صمت "يوسف" مليا ونظر إلي "خالد" ثم كرر كلمة الشيخ:

-" دم! "

فأكدها الأخير بثقة كاملة:

-" دم .. هذا الرصد لا ينفك إلا بسفك دم ! "

-" ندبح دبيحة ! "

هتف "خالد" غير المطلع على بواطن الأمر جيدا، لكن الشيخ ابتسم ساخرا .. أما "يوسف" الفهيم العليم فقد قال بهدوء -مع إن باطنه كان يرتجف-:

-" دم بشري .. الرصد ده ميفكوش غير دم .. دم إنسان ! "

وحتى اللحظة كان "خالد" يصر على التعامي عن المعني الحقيقي -الذي فهمه من أول مرة- وتجاهله .. عله يكون غبيا وقد فهم بشكل خاطئ. لكن لا.. ها هي أسوأ مخاوفه تتحقق .. وها هى مطالب، إن أراد اقتلاع كنزه المرصود، الذي كلفه غاليا حتى اللحظة، من أيدي الرصد

والعمار، أن يضحي بما لم يعد نفسه للتضحية به مطلقا ..
بدم بشري لا يعرف حتى من أين يمكن أن يأتي به !

*****

فتحت عينيها مع انبلاج أول خيط للفجر المشرق .. كان يوما باردا مضيئا محفوفا بريح باردة تنخر العظام نخرا .. لكنها لم تبالي !

الحريق المشتعل في رأسها وفي عروقها لم يدع لها فرصة الشعور بتقلبات الجو المضطرب حولها .. لم تذاكر كلمة هذا صحيح .. لكن أتترك حلم العمر يضيع ببساطة بتلك الطريقة السخيفة لمجرد مداعبة ثقيلة من كائن لا تعرف كنهه بالضبط ولا تريد أن تعرفه؟!

كان الكتاب ذو الصفحات المبيضة ينتظرها فوق المنضدة متشعثا مضطرب الصفحات وممزق أطراف البعض منها، لم يهون عليها أن تترك كل شيء يضيع بهذه الطريقة الخالية من الرحمة .. لماذا لم يأتي ذلك الكائن المقيت سوي لها هي بالتحديد؟! .. لماذا هي بالتحديد دونا عن كل البنات؟!

لكن ما جدوى اجترار ذلك الآن؟! .. فلتسعي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لعل سعيها يكلل، في النهاية، بالنجاح.

نهضت من فوق الأرض الصلبة التي حنت عليها الليلة الماضية وحركت أطرافها المتيبسة المتصلبة .. تحركت ببطء

والألم يسري في عظامها إلي الحمام .. وجدت أباها نازلاً من أعلي متسربلاً بعباءته الخفيفة في طريقه للخروج إلي الجامع لتأدية صلاة الفجر .. أحست بقليل من الراحة عند رؤية وجه أبيها الريان الطيب البشوش .. صبح عليها بلطف:

-" صباح الخير يا بتي ! "

-" صباح النور يا بابا ! "

ردت بصوت مختنق غير مسموع تقريبا فقطب الرجل جبينه وظهرت علامات القلق عليه وسأل ابنته مترقبا:

-" مالك يا "جيهان" .. أنت عيانة ولا أيه يا حبيبتي ؟! "

لم تكن "جيهان" في حالة طيبة، ولا حتى في حالتها العادية، وكان واضحا حتى لأكثر الناس عمي أنها مرهقة ومريضة وشاحبة حتى الموت .. لكن الفتاة لم تكنْ تريد أن تشكو، فليس من حقها ذلك، على الأقل الآن لذلك أنهت الموضوع فورا:

-" لا يا بابا .. ده أنا بس تعبانة شوية من السهر والمذاكرة وقلقانة شوية ! "

أقترب الرجل من ابنته وطوقها بذراعه اليسري ثم قبل جبينها الشاحب البارد وربت علي شعرها المكشوف وقال لها داعيا بإخلاص:

-" ربنا يكرمك يا بتي يا رب .. ويوفقك ويكرمك قادر يا كريم ! "

أمنت على دعاء أبيها وتحركت دمعة حسرة في زاوية عينها ولكنها كبتتها وردت على كلمات أبيها الطيبة بنظرة حنان وهزة رأس كانت كافية للأب الرءوم .. غادر الأب البيت تاركا ابنته تدلف إلي الحمام وتبدأ في إعداد نفسها للخروج إلي الامتحان.

ولكن لم تعد نفسها أصلا وتذهب إلي الامتحان وهي لم تستذكر حرفا واحدا منذ بضع أيام .. ولم يعد يعلق بخلايا عقلها سوي صورة ذلك المخلوق المتجبر المقيت الذي سود لياليها وأيامها وخيب رجاءها لسبب لا تدريه؟!

لماذا تحاول وهي تدرك أنه لا جدوى من المحاولة؟!

لكن نفسها التواقة إلي الغد .. نفسها التي تطلعت لحلم بعيد ودفعتها إلي هدم سور المحال المضروب حولها بعناية لم ترضي بأن تسكتين اللحظة حتى ولو كان الفشل مؤكدا والخسران مضمونا. لذلك غسلت وجهها بعناية وبللت شعرها، ثم ذهبت إلي غرفتها وجففت جلدها وشعرها المبتلين بفوطتها الخاصة .. وبعدها اقتربت من كتبها المكدسة في صفوف أمامها .. كان كتاب اللغة العربية الرئيس (كتاب القراءة والنصوص) يقبع مفتوحا على وجهه فوق الأرض حيث سقط من بين يديها الليلة الماضية بعد

أن آبت من رحلتها السرمدية الغامضة برفقة المخلوق القبيح الكريه، ترددت "جيهان" طويلا ثم أمسكت بالكتاب بإحكام بين يديها .. ارتعشت أوصالها للحظة وهي تتذكر كيف وجدته خاويا عطلا من الكتابة بالأمس وخافت أن تفتحه ثانية لتفاجأ -وستكون القاضية- بالأمر نفسه .. اعتصرت قلبها وعينيها وهتفت مخاطبة ربها الذي تحتاجه الآن بأكثر مما احتاجت إليه طوال عمرها:

-" يا رب .. يا رب ! "

لم تحتج أن تفسر حاجتها ولا أن تشرحها فهي تعرف أن الله سميع مجيب وأنه أقرب إليها من حبل الوريد الذي كان يربطها بأمها ذات ساعة منذ سبعة عشر عاما أو تزيد، تشجعت بمناجاتها لربها وحولت الكتاب نحوها وفتحت عينيها المضمومتين .. لتجد الكلمات التي طالما استذكرتها ورددتها وحفظتها مصفوفة بوضوح بجوار بعضها مكونة سطورا شهية تسر الناظرين !

لقد عاد الكتاب كما كان .. بلهفة جنونية أخذت "جيهان" تقلب كتبها (مدرسية ومذكرات وملخصات) واحدا تلو الآخر وتتفحصها.. وكانت كلها، كلها مملوءة كتابة وسطورا وعلما !

-" الحمد لله .. أحمدك وأشكر فضلك يا رب ! "

لأول مرة منذ أسابيع ابتسمت "جيهان" لنفسها .. وقررت أن ترتدي ثيابها وتعد نفسها للخروج تماما ثم تجلس لتستذكر، أو لتراجع دروسها.. لعلها تفلح في تخطي عتبتها الصعبة الأولي اليوم!

*****

خرجت قبل موعدها بساعة كاملة .. كان الامتحان في التاسعة لكنها، وقبل أن يروح العقرب الكبير بشوق إلي نقطته الثامنة، كانت تنسل خارجة من البيت .. حاملة كتبها ومذكراتها وحقيبة يدها الصغيرة غادرت رغم اعتراض زوجة أبيها التي طلبت منها البقاء حتى يقترب موعد دخول اللجان بدلا من أن تبقي (منشرة) في الشارع بجانب المدرسة حتى موعد فتح اللجان، لكن "جيهان" لم تسمع لقولها، كانت في قمة التوتر والقلق والشحوب يكسو ملامحها، وجسمها النحيف بطبعه ازداد هزالا ونحولا، وبرزت عروق يديها كالأصداف البحرية مظهرة مقدار الوزن الذي فقدته في خلال فترة بسيطة .. لكن ما من شيء في العالم يمكن أن يقنعها بالتراجع والكف عن محاولة تحقيق حلمها .. لذلك لم تبال كثيرا بلسعات برد يناير، بل ربما لم تشعر بها أصلا، وهي تجلس في حوش المدرسة، معتزلة أسراب البنات اللائي تجمعن على هيئة مجموعات صغيرة، وتبدأ في مراجعة بعض الدروس على

عجِل محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه .. وحينما دق جرس ما وسمح لهن بالدخول والجلوس في مقار اللجان شعرت برعب لم تشعر به من قبل أبداً. من يدرسون بشكل نظامي، ويزقهم أهليهم للذهاب إلي المدارس وتلقي العلم لا يمكن أن يشعروا بذلك القدر من الرعب، بل ربما تمنوا الرسوب حتى يستريحوا من عناء التعليم والدراسة وإرهاقهما ومللهما، لكن هي، تلك الفتاة المنكودة التي تقاتل في سبيل تحقيق حلمها الغالي، تعني لها الساعة كل شيء يمكن لأي شيء أن يعنيه لأي إنسان في هذا العالم الواسع ..

تم تسليم أوراق الإجابة، وطُلب منهن كتابة بياناتهن وتجهيز الأوراق وأرقام الجلوس ريثما تأتي ورقة الأسئلة .. دق قلب "جيهان" بعنف، وارتعشت يداها حتى أنها أسقطت قلمها الجاف الأزرق حينما تناولته محاولة البدء بتسجيل بياناتها، فجأة داهمتها رؤية فريدة، أغلقت عيناها وشاهدت وجها يطفو في الظلام المحمر تحت جفنيها المسدلين، كان وجها كبيرا مقيتا مخيفا.. وجه المخلوق الذي يطاردها !

ما الذي آتي به الآن .. ما الذي آتي به هنا ؟!

سمعته يحدثها بصوته غير البشري:

-" حبيبتي .. دعي عنك الخوف فأنت لي .. أنت لي ! "

نفضت رأسها بقوة .. وبنفحة من إرادة قوية مفاجئة طردته بعيدا عن رأسها، أزاحته جانبا وفتحت عينيها متطلعة إلي الكون المسود من حولها، لكنه بقي للحظة معلقا في تلك الزاوية الضيقة من عينها متلاعبا بها وهو. يتحرك هناك كالبهلوان باصقا الشرر الأزرق حول رأسه، لكنها لم تدعه يعابثها كثيرا .. لعنته في سرها وركلته بقبضة يدها المضمومة في إصرار وتهديد فأنسحب مندهشا مخلفا وراءه خيطا من الظلام المنسحب كالذيل .. خلال دقيقة كان الكون يسترد ألوانه الطبيعية ويصطبغ بكافة التكوينات اللونية من جديد.. ووصلت ورقة الأسئلة أخيرا!! تحاشت "جيهان" النظر إلي المراقبين وهما يدوران حول الصفوف يوزعان ورق أسئلة مادة اللغة العربية، ويراجعان بيانات الطالبات وأرقام جلوسهن .. تعامت عما يجري حولها حتى وجدت الورقة توضع أمامها .. أغمضت عينيها واستنجدت بالله ودعته متوسلة ملهوفة .. ثم اتكلت على ما لاذت بحماه لتوها وفتحت عينيها. نظرت عن كثب وتطلعت إلي الورقة -أثنين في الحقيقة- المليئتين بشتي.أنواع الأسئلة في كل فروع العربية إلتي يدرسونها في المرحلة الإعدادية .. فرت الورقتين والتهمت السطور بعينيها .. ثم تغير لون وجهها الشاحب تماما!

*****

في الساعة الثانية عشرة ظهرا. عادت "جيهان" إلي منزلها، كانت منتشية سعيدة وقلبها من فرط السعادة يكاد ينخلع من صدرها ويطير .. لقد أجابت أسئلة الامتحان كلها ولم تترك سؤالا ولا جزئية واحدة دون أن تجيب عليها وتكمل إجابتها .. الحمد لله الذي هدي الممتحنين وواضعي الأسئلة عليها وجعلهم وكأنما عن عمد -يختارون ما سبق أن ذاكرته جيدا- حتى حفظته صما، من دروس اللغة العربية، ليضعوا الامتحان منها .. كم أنت كريم يا رب !

لكن فرحة "جيهان" سرعان ما تلاشت حينما وصلت بيتها.. فقد وجدت سيارات الإطفاء تولول أمام منزل أسرتها والمنزل نفسه يحترق !

صرخت "جيهان" عفويا وألقت كتبها وحقيبتها علي الأرض.. وتخطت الواقفين الكثيرين أمام البيت وهرعت إلي الداخل .. كان هناك فوضي عارمة داخل البيت لكن لم يوجد ما يدل على امتداد الحريق إلي الدور السفلي أو الأوسط من البيت .. وبات واضحا أن الدور الأعلى، السطوح فقط، هو الذي شبت فيه النار .. وكانت قد أطفئت تقريبا حينما وصلت !

كانت زوجة أبيها حاسرة الرأس تصرخ وتجري من أعلي إلي أسفل والعكس وهي تولول منادية كل شخص في البيت باسمه، وداعية الله، وسابة النسوان والعيال والزمان وعين

الحسود وكل ما يمكن سببه في مثل تلك المناسبات .. وعندما أطمأنت "جيهان" إلي سلامة الدور الذي تقع فيه شقق أخويها "خالد" و"بدر" تنفست بعض الصعداء .. ثم جرت على السلم ناحية السطوح وهناك وجدت آثار الحريق ظاهرة تماما للعيان .. كان السطح مقسما إلي جزأين، جزء كبير مشمس يستخدمونه في تقطيع العيش، ووضعه في الشمس حتى يختمر، ثم ينقلونه إلي الجزء الآخر المستر ببعض الخرق المخيطة ببعضها، والبوص، وقطع الأخشاب الرقيقة، حيث يوجد الفرن، وهناك يرصون العيش في الفرن بعد أن يكونوا قد أحموا عليا جيدا .. وكان السطح مفروشا بكومات من الحطب والعفش والأوراق التي تستخدمها زوجة أبيها كـ(وقيد) لتحمي الفرن بها .. وكانت كل تلك الأكوام قد احترقت وتفحمت وتحولت إلي نثار محترق أخذ يتطاير في كل مكان .. حمدت "جيهان" ربها على أن النار لم تمتد إلي بقية المنزل، ولا إلي شقق أخويها حيث توجد عدة (أنابيب بوتاجاز)مليئة كانت قمينة بتدمير البيت كله لو انفجرت.. لكن الخضة فعلت فعلها في الفتاة، التي كانت منذ دقائق فرحة بما حققته في امتحانها الأول من نجاح متوقع بل ومؤكد، فأحست برعشة الخوف وغشاها غثيان عنيف

وأحست بدوار يكاد يلقيها أرضا .. لكنها أفاقت على صوت زوجة أخيها وهي تولول وتصرخ وتندب مرددة:

-" والله مكان في حد علي السطح .. ولا حد من العيال كان فوق .. العيال كلهم كانوا بيلبعوا في الشارع .. يبقي مين اللي ولعها يا ناس ؟! "

أخذت "هناء" تكرر سؤالها، الذي يبدو أنه لم يكن موجها لأحد أصلا، دون أن تحظي بإجابة لسبب بسيط .. إنه ما من أحد من الواقفين كان لديه تفسير لاشتعال النار دون مسبب في سطوح المنزل الحاج "إمبابي" !

لكن التحقيق -مهما طال- فلن يصل إلي إجابات قاطعة .. وأصلا لن يتم أى تحقيق في الأمر فهو مجرد حريق عادي قضاء وقدر .. وليبقي الفاعل علمه عند الله .. إن كان هناك فاعل !

*****

غشيها نوم ثقيل بعد العشاء .. كانت ساعات النهار الطويلة قد مرت عليهم مريرة عصيبة .. بعد أن تم إطفاء آخر ذيول الحريق عكفوا كلهم، رجالا ونساء، على جمع مخلفاته وكوموا البوص والأوراق والعفش المحترق على جانب من السطح .. ثم قامت النساء برش السطح، المبتل أساسا، بمزيد من المياه وكنسه وتنظيفه والتأكد من عدم وجود أي قطعة ورق أو عفش مشتعلة تحت الأكوام

الهامدة .. أنتهي النهار حاملا خيره وشره معه وبقيت بعض النسوة من الجيران للمساعدة، إن أمكن، وتقديم الواجب لزوجة الحاج "إمبابي" وحريم بيته .. ثم انصرفن وهن يدعون بأن تكون النار قد أخذت الشر وراحت ومؤكدات على أن الحريق كان بسبب الحسد وتطلع الناس للحاج وأمواله وأولاده الله يحرسهم .. وعادت "جيهان" أخيرا إلي غرفتها متعبة، كانت سعادتها بما حققته اليوم قد تلاشت تقريبا، بسبب ما تعرضت له بعدها من مفاجآت غير سارة بالمرة، لكنها أكلت القليل من الطعام، مع أسرتها، وذهبت إلي غرفتها لتراجع مادة الغد.. كان من حسن حظها أن الدراسات الاجتماعية، التي ستمتحنها غدا قد أستذكرتها عدة مرات بطريقة جيدة جدا، وتكاد تذكر كل حرف فيها، وهكذا لن تحتاج إلا إلي مراجعة مركزة قصيرة لتسترجع المادة بأكملها .. لكن ليت الكيان الكريه المقتحم يتركها لحالها الليلة !

*****

في غرفته أوي "خالد" إلي فراشه متأخرا عن موعد نومه اليومي عدة ساعات .. كان يتحجج بأحداث النهار المزعجة ليبرر بها ما يبدو عليه من هم وقلق .. لكن الحقيقة كانت غير ذلك تماما !

الحقيقة أن الحريق العارض الذي شهده البيت اليوم لم يكن له إلا أقل الأثر على حالة الولد الأكبر العصبية السيئة.. فهو دخل في ما يشبه حالة الجمود العقلي والذهول والأرق الدائم منذ أن سمع تلك النصيحة والوصفة المرعبةِ من الشيخ المغربي:

-" دم! .. الدفينة دي مش هتفتح غير بدم ! "

لكن أى (دم) ذلك الذي لن تفتح الدفينة إلا به ؟!

كان يحلم بأن يطلب (الشيخ) خروفا أو عنزا أو حتى عجلا لإراقة دمه فداء لعيون الكنز المرصود .. لكن للأسف فقد كان الثمن المطلوب أبهظ وأغلي مما يستطيعُ تحمله !

دم بشري ؟!

من أين يمكنه أن يأتي بضحية بشرية ؟! ناهيك عن أنه يستحيل أن يفكر في الإقدام على الأمر أصلا إلا أن التوصل إلي (الذبيحة) المطلوبة أساسا محال !

أعوذ بالله من غمزات الشيطان .. لماذا يحاول الشيطان أن يهون الأمر ويسهله له ؟!

لماذا يدور حوله ويلف في عقله محاولا إقناعه بالإقدام على تلك التضحية الرهيبة ؟!

هل يخسر آخرته فداء لعيون الكنز ؟!

وحتى دنياه هي الأخرى سيخسرها حتما وسيجري القبض عليه ومحاكمته، وسينال عقوبة أقلها المؤبد، إن لم تتدلي

رقبته من حبل المشنقة .. وبغض النظر عن كافة تلك الاعتبارات فهل تطاوعه نفسه على قتل إنسان مهما كانت النتيجة المرجوة ومهما كان المقابل !

متقلبا على فراش من جمر قضا "خالد" بضع ساعات مؤرقاً، بينما كانت زوجته "هناء" تغط في النوم بجواره، وصوت شخيرها الخفيض المنتظم المزعج يجعله يتمني أن يطبق على زمارة رقبتها، فلا يتركها إلا جثة هامدة .. ولعله من الأفضل أن يخنقها ويضحي بها هي قربانا للرصد الملعون الذي يحرس الدفينة، وبهذا يحقق فائدة مزدوجة.. فينفتح له أبواب الكنز المرصود ويتخلص من رغي زوجته وشخيرها في ضربة واحدة !

ضحك "خالد" عندما خطر ذلك التصور على خياله .. وكان معني ضحكه شيئا واحدا .. إنه قد صرف نظر عن مسألة الكنز تلك من أساسها .. وإذا كان الكنز لن يفتحه إلا الدم إذا فليبقي مغلقا إلي الأبد وليعوضه الله خيرا عما فقده، وعما ضيعه، من نقود ووقت وجهد !

الغريب أن ابن الحاج "إمبابي" الذي قضي شهورا طويلة يفكر ويبحث وينقب ويدبر ويخطط لانتزاع ذلك الكنز الغابر من بين طيات الأرض المتشبثة به، لم يشعر بالراحة والأمان إلا عندما قرر الإقلاع عن تلك المحاولات جميعها إلي الأبد !

تسرب مسيس الراحة إلي قلبه .. وشعر بالرضاء يتسلل إلي نفسه وما لبث أن أغلق عينيه مستسلما لسنة من النوم دهمته وتسربت إليه فجأة .. أنزلق لأسفل وسحب الغطاء الثقيل حتى ذقنه وأسترخي مستعدا للغرق في لجة النوم العميق ..

لكن لم يمض لحظة حتى فتح عينيه مرة أخري في الظلام .. لقد تسلل مثير ما إلي حواسه المشحوذة الحادة .. لم يكن المثير الدخيل صوتا ولا ضوءا بل كان رائحة .. رائحة ثقيلة جاثمة حارقة .. كان البيت يعبق برائحة الدخان القوية ومن أسفل أنطلق صوت صراخ مستغيث !

*****

نحت "جيهان" كتابها جانبا عندما تسللت رائحة قوية نفاذة إلي أنفها الحساس .. كانت رائحة بعيدة في البداية، يصعب تمييزها أو الإمساك بها، لكنها تتبعت حاستها القوية حتى التقطت طرف الخيط الذي قادها إلي حقيقة شبه واضحة .. إنها رائحة دخان !

وبسبب أحداث اليوم غير المرجو تكرارها أسرعت الفتاة وألقت كتابها على الأرض وفتحت الباب.. جرت حتى وصلت إلي السلم ووقفت في بئره وهناك نظرت إلي أعلي لتجد اللون البرتقالي الصارخ يتراقص فوق سطحهم من بعيد.. جرت وهي تصرخ متجهة إلي أعلي، وفي طريقها

أيقظت بصواتها جميع النائمين في الدور الثاني، وأكملت عدوها لتصل إلي السطح، والآخرون يهرولون حفاة ومنكوشي الشعور خلفها، وعندما وصلت إلي السطح وجدت حفرة من الجحيم تفجرت هناك .. السطح كله مشتعل !

ثمة ألسنة من اللهب تتراقص ملتهمة جزء كبير من السطح بكل ما تبقي عليه -بعد إزالة أثار حريق النهار- الذي لم يمض علي إخماده سوي ساعات قليلة .. الغريب أن السطح كان خاليا من أي ورقة أو قشة أو خرقة واحدة يمكن لها أن تتسلم ألسنة النار، وتسلمها، فبأي شيء أمسكت النار أصلا؟!

لم يكن هناك مجال كاف للتساؤل ولا لإبداء الدهشة .. أخذت "هناء" تصوت بأعلى حس لديها، وتشاركها حماتها الحرون .. بينما جرت "جيهان"، التي أصبح لونها يحاكي لون الموتى شحوبا، تعاون أبيها وأخويها في جلب الماء لإطفاء هذا الحريق الهائل .. لم يقف أحد ليسأل كيف أشتعل هذا الحريق الجديد، ولماذا، فلم يكن هناك وقت لذلك .. لكنهم عندما استطاعوا أخيرا، وبجهود الرجال ومعهم "جيهان" التي تقطعت أنفاسها وهي تجري جالبة الماء من أسفل في كل ما وصلت إليه يداها من حلل وجرادل وحتى "ماجور" العجين كذلك ملأته بالماء، وحملته

على قلبها المتقطع، وصعدت به السلم، وكاد يغمي عليها من فرط الجهد والتعب والتوتر عندما وصلت به إلي أعلي وكادت تسقط به علي وجهها، لولا أن سارع أباها بتناوله منها وإلقاء ما به من ماء على آخر ذبالات الحريق الذي أخمد بطريقة تامة. كان الجيران قد استيقظوا كلهم على صراخ وولولة زوجة الحاج "إمبابي" و كنته، و لما لم يكن بإمكانهم الحضور إلي المنزل الآن والمساعدة في عملية الإطفاء، لأنهم بحاجة لمن ينزل ويفتح لهم باب المنزل الكبير بأسفل، ولا أحد من أهل البيت كان متفرغا للقيام بذلك، فقد ساعدوا بطريقتهم .. فوقف الرجال فوق أسطح بيوتهم يسدون النصائح للرجال الثلاثة في كيفية صب الماء على ذيول النار المنتشرة هنا وهناك، وإطفائها بأقل جهد وكمية ماء ممكنة، بينما شاركت النسوة الضالعات في الخراب بأصواتهن النحاسية المرعبة، وألفن مع زوجة الحاج وزوجة ابنه كونشرتو واحد من الصراخ والصوات والولولة حتى ضجت الأرض نفسها بارتفاع أصواتهن واختلاطها، وأصمت أذنيها بقطن ولاصق طبي .. لكن الحريق، في نهاية الأمر، تم إخماده تماما !

سقط الأب على الأرض فوق البقايا المبتلة دون احتراز وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بينما وقف ولده "بدر" مظهرا مظهر الرجال الأشداء الذين لا تهزهم ريح .. أما

"خالد" فوقف شاحبا مرتجف الأوصال والدم يقرع أذنيه ويدوي فيهما، يتلفت حوله منزعجا مبهورا من منظر الحريق وبشاعة ما أحدثه في السطح الخالي من تدمير وتخريب .. أصغي الابن الأكبر لصوتي زوجة أبيه وزوجته بدون اكتراث، ثم أفاق فجأة وقال لأبيه بشرود لب وخوف يظهر جليا في نبرات صوته المضطربة:

-" إحنا لازم نجيب شيخ يا أبا ! "

*****

أحست بأن يدا تتسلل عبر شعرها فهبت مذعورة.. كانت مستغرقة في نومها وسط الظلام الحالك.. لم تكن قد أطفأت سائر الأنوار عندما آوت لفراشها، عقب ساعات من الاستذكار والقلق والتوتر الممتزج ما بين خوفها من الامتحانات وخوفها من اشتعال الحريق للمرة الثالثة في منزلهم، لذلك فقد كان معني الظلام الجاثم فوقها الآن أن الكهرباء قد انقطعت .. أو أن أحدهم قد أطفأ نور الغرفة الساهر الصغير !

فتحت عيناها محدقة، ببصر لا يري، فيما حولها .. وعبر الظلام شاهدت العينين الكبيرتين المضيئتين تنظران إليها بعمق ووله:

-" أنت جميلة للغاية وأنت نائمة ! "

كان يتحدث بتلك الطريقة التي لا تشابه طريقة كلام سائر البشر لكنها كانت، كالعادة، تفهمه جيدا، أحست بالذعر ينتابها مثلما ينتابها في كل مرة تري فيها عيناه وتشم رائحته النفاذة الكريهة. بطريقته سألته:

-" ماذا تريد ؟! "

كانت قد وصلت آخر مدي تحملها وبلغت روحها الحلقوم من هذا الشيء المقيت الذي يفرض نفسه بالقوة عليها، حتى أنها لم تعد تبالي بخوفها منه، لكن رده على سؤالها الذي أتي سريعا جعلها ترتعد فرقا:

-" أنت ! "

تسمرت كل خلية في جسدها مكانها ثم انطلقت تحاول الفرار عندما جثم كجلمود صخر فوقها .. أخذت لوقع المفاجأة للحظة، ثم بدأت تحاول دفعه وإبعاده عنه .. مدت ذراعيها دافعة إياه إلي الخلف، فأمسك بمعصميها ولواهما برفق للحظة، ثم أطبق على الذراعين نفسيهما وجذبهما نحوه فأصبح ذراعيها يطوقان أعلي جسده .. وأقترب منها أكثر، وكاد يجثم فوقها لولا أنها دفعته بقوة وركلته بقدميها بعنف في ما أسفل صدره. لا تعرف إن كان له بطن أم لا، ويبدو أنه تأثر بالضربة لأنه تراجع للخلف قليلا، ثم أرتد ممسكا بها بقوة بين ذراعين من فولاذ فكاد يحطم عظامها:

-" بسم الل.. "

كادت تنطق باسم الله مستعيذة به من ذلك الوجود الشرير لكنه مد يده وأطبق على فمها كاتما أنفاسها ومانعا إياها من استكمال عبارتها .. عاد للجثوم فوقها، لكنها استمرت تقاومه وتكافحه بكل ما تبقي لها من قوة مبعدة إياه عنها قدر استطاعتها .. فجأة لمع ضوء مبهر في عقلها وأحست بأن النجدة في طريقها إليها، قرب وجهه من وجهها بصورة كاملة ولفحت أنفاس ساخنة كريهة الرائحة وجهها وجعلت أوصالها ترتعش .. أخذت تركله بقدميها كالثور، ورغم إحكامه السيطرة عليها إلا أنه لم ينجح في منعها من الركل والضرب بقدميها .. "زيق" السرير تحت وقع الحركات القوية المختلطة فوقه وسمع صوت خطوات تسرع مقبلة .. فُتح باب الغرفة وأندفع تيار من النور الباهر إلي الداخل، وبدا على عتبة الغرفة والد "جيهان" .. غطا الجني وجهه بيديه ثم لم يلبث أن أندفع مختفيا كسهم من البرق أتجه صوب ركن الغرفة وتبدد مارا عبر المرآة .. نفذ السهم عبر الزجاج المصنفر وتهشمت المرآة بصوت مدوي وتناثرت شلالات من الشظايا على الأرض !

*****

لم ينم أحد من سكان البيت بقية تلك الليلة .. لم يكن الأب قد رأي المخلوق المهاجم وهو في غرفة ابنته، لكنه سمع صوت الحركات العنيفة في غرفة ابنته وهو في طريقه إلي المخزن تحت المنزل. كان الأب يحمل في يده فأسا وفي عقله قراراً نهائياً لا رجعة فيه .. سيردم تلك الدفينة اللعينة ويسويها بالأرض وينضح فوقها الماء، ثم يحضر شيخا ليقرأ عليها سور من القرآن الكريم ليتخلصوا من لعنتها المقيتة تلك، فقد عزا حدس الأب كل ما يحدث في البيت، والحرائق التي تشتعل به بدون مبرر إلي لعنة رصد المقبرة وأقسم أن يغلقها ولو كان بها كنز "سليمان" نفسه.. وويل لمن يفكر في الوقوف بوجهه أو محاولة منعه!

لكن الأب فيما يبدو، قد ساقه الله وأخرجه من فراشه في تلك الساعة، لينقذ ابنته من بين براثن ذلك المخلوق .. لقد قال أنه سمعها تصرخ في غرفتها رغم أنها كما تتذكر جيدا لم تجد الفرصة السانحة للصراخ والاستغاثة بعد أن أطبق ذلك المخلوق على فمها وسد حنجرتها بقبضته النارية!

لكن الأب يصر على أن سمعها تصرخ بأذنه:

-" كنت بتصرخي ليه يا بتي ؟! "

سألها وهو يدنو منها وهي مبعثرة مشعثة في فراشها، فقالت وهي تلملم نفسها وتحيط جسدها بالبطانية:

-" مكنتش بصرخ يا بابا .. سلامتك ! "

هنا تغير لون الأب وهتف ساخطا لكن برفق:
-" أنا سمعتك بودني يا بت .. كنتي بتصرخي ليه ؟! "
تري هل صرخت دون أن تنتبه لخروج الصوت من حنجرتها أم أنها والدها شُبه له؟! .. لا فرق فالمهم أنه ليس لديها ما تقوله لأبيها، لكنه لم ينتظر جوابها طويلا بل سألها برفق وهو يتجه ليجلس بجوارها على الفراش:
-" أنت شوفتي حاجة ؟! "
فهمت مقصده على الفور لكنها ماطلت رغبة في إبعاده عن ذلك الموضوع، إنها لا تريد أن تعترف له، لا لشيء إلا لإنها تخاف على أبيها ولا تريد له الأذي:
-" حاجة أيه يا بابا .. ده أنا بس كنت بايني بحلم بِحلم وحش ! "
لم يصدق الأب حرفا بل كرر موضحا مقصده بجلاء:
-"شوفتي حاجة وحشة.. بسم الله الرحمن الرحيم يعني؟!"
ذلك هو نهاية الأمر فإما أن تبوح لأبيها بكل شيء وإما أن تصمت متحملة الأمر بمفردها إلي ما يشاء الله.
-" أنت شوفتي حاجة وحشة؟ أنطقي يا بنتي ربنا يخليكي .. أنا عارف كله ده من المحروقة دفنة الهم دي ! "
كان واضحا أن الأب فطن إلي كل شيء .. لكن "جيهان" حاولت أن تلوذ بصمتها أكبر وقت ممكن:
-" مفيش حاجة ... "

لكنه لم يدعها تكمل .. بل نهض من جوارها وأمتشق فأسه الضخم الذي يحمله في يده وهتف مكذبا إياها:

-" يا بنتي ما تنشفيش ريقي .. أنا عارف كل حاجة! كله ده من المحروقة دي .. الله يقطع الكنوز على الرصد على اليوم اللي فكرنا فيه نحفرها .. أنا ههدها على دماغ اللي فيها دلوقتي .. إن شاء الله يكون فيها ألف عفريت ! "

كان الأب صادقا تماما في عزمه، ولو تُرك وشأنه لبر بوعده وهدم الدفينة وسواها بالأرض، وربما هدم المخزن كله فوقها وأنهي الأمر.. لكن الأب لم يتحرك من مكانه ولا ابنته المتدثرة بغطائها، لأنه وأمام عيونهما المرتاعة بدأ خيط من اللهب يخرج فجأة من بين ضلفتي دولاب الفتاة المعلق .. ثم اندفعت ألسنة هائلة من النار، انبثقت فجأة، في التهام الدولاب الصغير أمام عيونهما خلال أقل من لحظة!

*****

بقيت "جيهان" مع زوجة أبيها و"هناء" زوجة أخيها الأكبر "خالد".. كانوا قد تمكنوا من إطفاء النار المشتعلة في غرفة الفتاة، لكن أباها أصر على ألا تبقي فيها لحظة واحدة بعد تلك الساعة.. وبعد أن أطفئوا آخر ذبالات النار وأخمدوا آخر بقايا ألسنتها، أمر الأب ولديه بأن يتبعانه إلي المخزن.. حملوا فئوسهم وهرعوا نحو مكمن الدفينة السرطانية

وهناك وجدوا ظلمة كثيفة في استقبالهم، كان هذا عاديا، لكن الذي لم يكن عاديا أبدا هو الرائحة الخبيثة التي استقبلتهم والتي عبق بها المخزن. كانوا عازمين على ردم الدفينة الليلة، على أن يأتوا بمن يقرأ وينضح الماء عليها ويغلقها نهائيا في صباح الغد، ولم يكونوا مبالون بما يمكن أن يجدوه في انتظارهم هناك، خاصة الأب الذي رأي منظر ابنته المروع بشعرها المنكوش ووجهها الشاحب ومنظرها المشعث، وأدرك من خلال صمتها أن ثمة شيء رهيب كان سيحدث لها ومعها .. لم يكن بحاجة إلي كلامها ليعرف ذلك ويفهمه بل كان صمتها ومنظرها كافيين جدا ليفهم كل شيء!

بقيت النسوة الأربعة معا، بعد أن انضمت إليهن زوجة الابن الثاني "بدر" التي كانت تدور في الغرفة مظهرة عظيم قلقها وخوفها على زوجها وحماها وسلفها من تلك المهمة الخطيرة التي سيقومون بها في أسفل البيت معرضين أنفسهم لهجمة مباغتة، ربما -من كائن خارق شيطاني- لا يعرف أحد كنهه بالضبط .. لكن المهمة في الحقيقة كانت أخطر من تلك التصورات البدائية التي علقت في ذهن زوجة الابن الخامل، فما كاد الرجال الثلاثة ينزلون حاملين فئوسهم للقيام بمهمة الردم فوق موقع الدفينة -نصف المحفور- حتى وجدوا أمامهم صمتاً وهدوءاً شاملاً .. كان

الكون كله معلق فوق رؤوسهم غافيا صامتا لائذا بصمت رهيب .. صمت يسبق الكارثة!

بسمل الأب وحوقل ثم بدأ يزيح التراب المتراكم من عمليات الحفر القديمة، ويزيحه ملقيا به فوق الحفرة .. وأندفع ولداه مساعدين له في إنهاء تلك العملية التي اتفقت آرائهم على القيام بها !

ولم تكد تمضي دقائق حتى كان التراب ينهال فوق الدفينة مثيرا سحابة من الغبار، لكنه كان يهوي فوقها كما تهوي الرجوم فوق الشياطين .. وقليلا قليلا بدأت الأتربة المتدفقة تردم وتخفي وجه الدفينة -فم الكنز المرصود الملعون- من فوق سطح الأرض وتعيده سيرته الأولي، مجرد كومة من نفايات الأقدمين محروسة بعفريت -مفرد أو جمع لا يهم- من الجن لا عمل له إلا تخويف الناس وإبعادهم عن مخلفات سادته البشر الذين أكلتهم الأرض منذ ألوف السنيين. فكم هم بلهاء أولئك الجن الراصدون وكم يستحقون -عن جدارة- أن يرسفوا في العذاب المهين ويلبثوا فيه إلي يوم يبعثون !

وما كادت الحفرة تختفي، تحت سطوة التراب النفاذ الرائحة الذي لا يرحم، تماما .. حتى سارع الأب يصب الماء بغزارة فوق موقع الدفينة وهو يتلو المعوذتين وقصار السور ويستنجد بالله وقوته وجبروته وداعيا إياه أن يقيهم

شر هذا الراقد الذي يتلظي تحت التراب بحق رسل الله "موسي" و"سليمان" !
قصة وانتهت، هكذا ظن الجميع وهكذا تمنوا .. لكن الرأي لم يكن رأيهم لوحدهم .. فثمة مخلوق آخر، ثمة وجود ثان له رأي بالأمر.. ولم يسمع الجميع رأيه بعد !
لكنهم سامعيه عما قريب.. أقرب كثيرا مما يتخيلون أو يتصورون!

*****

أشرق الصبح بطيئا متثاقلا على تلك الناحية من كون الله الواسع .. لم يكن أحد من عائلة الحاج "إمبابي" قد آوي إلي فراشه، بل ظلوا ساهرين متجاورين وكأنهم يحتمون ببعضهم من خطر مجهول .. لكن لم يكن ثمة خطر مجهول، ولا معلوم، يحوم في الأفق في ذلك اليوم الجديد .. فقد دفنت الدفينة وردمت وسويت بالأرض، وأطفأت غلتها بالمياه ولم يعد هناك حاجة لأي كلام عنها بعد ..
ورغم التعب ومشاهد الذعر التي شاهدتها وعانت منها ابنة العائلة "جيهان" طوال الأيام الماضية وما سبقها، إلا أنها شعرت بالانتعاش حينما أشرقت فوقها شمس اليوم اللامعة الحانية .. تمطت وهي جالسة فوق سرير أبيها، الذي أصر على أن تقضي بقية ليلتها في غرفته هو، وألا تلج غرفتها ثانية قبل أن يأتي الشيخ "تمام" في الصباح ليتلو فيها

الصمدية والمعوذتين، وسورة "ياسين" إن أمكن، ليطرد منها أي بقايا للوجود الشرير الذي كاد يفتك بفتاته الناحلة الليلة الماضية .. ورغم أن أحداث الليلة الماضية كانت عاصفة، إلا أن الصباح الجديد الذي تحرسه الشمس بجبروتها ولونها الذهبي، دفع بالحياة في عروق الفتاة الهامدة الخامدة، وأيقظ فيها روحها المتطلعة إلي الجد والتغيير وتحقيق طموحاتها، لذلك أمسكت بكتابها، وأخذت تراجع دروسها فوق فراش أبيها كالمحمومة وأصرت على أن تذهب للامتحان، رغم أنها لا زالت تعاني الرجفة والذعر كلما تذكرت مشاهد الليلة الماضية، ويرتجف بدنها كلما تذكرت لمسته وأصابعه المتسلسلة التي تتخلل شعرها المنتثر على الوسادة .. لكن لا !

لن تعطيه الفرصة ليدمرها ويقضي على آخر أمل تبقي لها في الدنيا .. تعجب الجميع من موقفها هذا، وهم الذين سمعوا صرخاتها بأذنيهم ورأوا النار وهي تلتهم دولابها بما فيه من ثياب وأغراض خاصة بها في لمح البصر، وهي تزأر وكأنها وحش، ونصحها أخوتها بأن تنتظر حتى تتخطي هذه الأيام السوداء، ثم تدخل امتحانات الدور الثاني .. لكن أمام إصرارها وتشدقها بموقفها، وطمأنتها لأبيها بأنها تحفظ المنهج حفظا، لدرجة أنها لا تحتاج سوي لإلقاء نظرة عليه فقط لتتذكره كله وتحل جميع أسئلة الامتحان

مهما كانت صعوبتها، وافق الأب ودعا لابنته بالنجاح والتوفيق ..

وتحت نظرات زوجة أبيها المعترضة الصامتة، وشفتيها الملتويتين في ازدراء مخفي، ارتدت "جيهان" ثيابها، وغادرت منزلها في ساعة مبكرة من الصباح .. كانت تتأبط لوح ورقي مقوي كبير تستخدمه لتسند عليه ورقة إجابتها وتكتب فوقه، بالإضافة إلي حقيبتها الجلدية الخاصة الحاوية لأدواتها الكتابية، وأغراض شخصية صغيرة والنقود التي أعطاها لها أبيها، رغم احتجاجها أنها ليست بحاجة إلي كل هذه النقود، لكن الأب أصر.

خرجت الفتاة سعيدة منتشية بأحاسيس الصباح الجديد الدافئ ومشاعر التحرر .. كانت تشعر أنها تحررت تماما من قبضة ذلك الكائن الهلامي الشيطاني وأنها صارت حرة.. وستذهب إلي الامتحان، وستنجح، وسوف تحصل على مجموع مرتفع يؤهلها لدخول المرحلة الثانوية العامة .. ثم ستذهب إلي الجامعة، وتصير طبيبة أو صيدلية أو ربما محامية، وستنسي تجربتها المؤلمة المرعبة تلك، وربما ضحكت عليها ذات يوم وهي تحكي تلك القصة لأولادها وأحفادها .. قصة الجني الرصد الذي عشق أمهم وهام حبا بجدتهم العجوز!

لكن كافة تلك الأحاسيس اللطيفة ما لبثت أن بدأت تبدد مع القلق المفاجئ الذي غمرها .. فقد أحست بأن هناك من يتبعها !

لم تكن واثقة بالضبط مما تحسه أو ما تشعر به .. إلا أنها وبمجرد أن غادرت مدخل بيتهم، حتى أحست كأن هناك من يتبعها أو يمشي خلفها .. كان الصباح باردا نديا والهواء البارد ينخر العظام، ولم يكن ثمة مخلوق يمر في شارعهم في تلك الساعة سواها، فقد خرجت مبكرة أكثر مما يجب، ولكن ولأن المدرسة تقع في شارع قريب تركها أبيها تغادر البيت بمفردها. ألتفتت "جيهان" خلفها، فلم تري شيئا .. فقط الشارع البارد منكس الرأس أم سطوة الريح الباردة، التي تكتسحه بقوة معلنة أنها، مهما مضي عليها من شتاءات قاسية، لا تزال في عنفوان شبابها! لكن الإحساس بالمطاردة داهم الفتاة للمرة الثانية فحولت رأسها ونظرت وراءها.. لتجد شكلا كبيرا يتقدم نحوها في نور الشمس الضعيف الأبيض البارد.. ارتجفت، لا تدري لم، وكادت تصرخ إلا أنها سمعت صوته يحادثها:

-" أستني يا بت .. من بدري بنده عليكي ! "

كان الصوت مألوفا تماما ومحببا إلي أذنيها.. لقد كان أبيها!

-" أيه يا بابا في حاجة ؟! "

لقد داهمتها المخاوف من أن تكون النار المجهولة المصدر قد أندلعت في بيتهم للمرة الثالثة إلا أن الأب قال وهو يتقدم نحوها حتى حاذاها:

-"متخافيش مفيش حاجة .. بس لقيت الدنيا فاضية خفت عليكي تمشي لوحدك في الشوارع دلوقتي فجيت أتمشي معاكي وأوصلك !"

فاض قلب الفتاة بالحب لأبيها الحنون وهتفت برقة من قلبها:

-" ربنا يخليك لينا يا رب يا بابا ! "

وأقدمت على شيء لم تدري لما أقدمت عليه رغم أنه لم يكن مناسبا في تلك الساعة.. لقد تقدمت من أبيها و قبلته على خده كما كانت تفعل عندما كانت مجرد طفلة صغيرة..

حركت قبلة ابنته مشاعر الأب أيضا وقال هو يمسك ذراعها متظاهرا بأنه يشدها بقوة:

-" يلا يا بت .. بلاش صغرنة دلوقتي خلينا نروح نرميكي في المدرسة ونرجع! "

ضحكت "جيهان" وسارت بجوار أبيها .. لكن الغريب أنها أحست وللمرة الثانية، بأن هناك من يتتبعها ويمشي خلفها، هي وأبيها تلك المرة !

*****

مرت ساعة ونصف، قبل أن يدق الجرس داعيا الطلاب إلي لجان الامتحان، عكفت خلالها "جيهان" على استرجاع كل ما ذاكرته وحفظته من مادة اللغة الإنجليزية.. لم تكن تحب اللغة الإنجليزية إلا أنها كانت تستذكرها بجد، ويمكنها، بقليل من الجهد، أن تحل امتحانا كاملا حلا صحيحا نموذجيا على أكمل وجه.. وحينما دق الجرس لم تكن تشعر سوي بقليل من التوتر والخوف ..

دخلت إلي اللجنة وأستعدت لتجلس إلي مقعدها المعتاد الذي يحمل رقم جلوسها.. لكنها لم تجده !

مرت وسط صفوف المقاعد، ثلاثة صفوف، باحثة عن مقعدها، الذي لم تجده في مكانه الأول، وحسبت أن أحدا ما قد حركه من مكانه، لكنها لم تعثر له على أثر.. وجلست بقية البنات علي مقاعدهن، وبقيت هي وحدها الواقفة دون أن تجد مقعدا لتجلس عليه .. خرجت من اللجنة ونظرت في الطرقة، علها تجد مراقبا، أو موظفا بالمدرسة لتخبره بأنها لا تجد مقعدها ولا رقم جلوسها .. وعثرت على شخص وقور ذو بذلة رثة وشعر أشيب خفيف واقف يحادث شخصا ما عبر الهاتف المحمول، فذهبت إليه ووقفت، على نار، لحظات ريثما ينهي تليفونه المهم جدا .. وعندما فرغ أخيرا من محادثته ونظر إليها مستفهما:

-" في حاجة ؟! "

فقالت له بصوت منخفض:
-" حضرتك أنا مش لاقية الكرسي بتاعي ! "
-" نعم ؟! "
سألها مستفسرا وهو يقرب أذنه منه، وبدا لها أنه لم يسمع فعلا، فقالت مكررة بصوت أعلي وأوضح تلك المرة:
-"المقعد بتاعي حضرتك اللي عليه رقم جلوسي مش لاقياه!"
كان الأمر واضحا والمشكلة صغيرة، لكن حل المشكلة والإتيان بمقعد جديد للبنت، بعد أن تأكد المراقب الأول الذي وصل، حاملا أوراق الإجابة، من أن المقعد فعلا ليس موجودا، والطالبة لا تخفيه في جيبها ولا في كم بلوزتها، أستغرق دقائق طويلة بدت لـ"جيهان" وكأنها ساعة وسببت لها توترا وقلقا هي في غني عنه الآن ..
لكن الأمر لم ينتهي بجلوسها، أخيرا، علي المقعد الجديد، لأن القلم، أول أقلامها الذي أخرجته من الحقيبة لتكتب بياناتها على الاستمارة الملصقة فوق ورقة الإجابة، رفض أن يخط حرفا واحدا.. شطب !
الغريب أنه كان ممتلئا بالحبر، ولم يستخدم تقريبا، لكن لا مشكلة (مجاتش على قلم يعني) .. لكن القلم الثاني أيضا حذا حذوه !

جربته "جيهان" فلم تسقط منه نقطة حبر واحدة على الورق .. جربته ثانية بطريقة أعنف، وقد توترت حقا وتعرقت راحتا يداها، فكاد أن يمزق الورقة بسنه الرفيع الشبيه بالإبرة ..

لم يكن مع الفتاة سوي هاذين القلمين، فقد أنساها فرط التوتر الذي عاشته الليلة الماضية، إحضار مزيد من الأقلام معها هذا الصباح .. لكن لا مشكلة، أم أن هناك مشكلة فعلا ؟!

لا طبعا .. فقد تبرعت لها فتاة قريبة منها في المقعد المجاور بقلم جديد ممتلئ، لم ينكشف سنه على ورق من قبل ..

لكن ذلك الموقف البسيط الذي حدث زاد من توتر الفتاة وارتباكها الشديدين، كانت حساسة بطبيعتها وأقل قلق أو توتر صغير يؤثر عليها تأثيرا خطرا .. وقد أكد منظرها حينما وصلت ورقة الأسئلة أن ما حدث قد أفسد تركيزها تماما .. فبعد أن انتهت أخيرا من كتابة بياناتها على ورقة الإجابة، بالقلم الذي أنعمت عليها به زميلتها في اللجنة، وراجع أحد المراقبين استمارتها وتأكد من صحة ما سجلته من اسم ورقم جلوس وخلافه، وصلت أخيرا ورقة الأسئلة ممتلئة علي الوجهين .. وتسلمت "جيهان" ورقتها، فشحب وجهها وارتعشت أطرافها ونبتت نقاط عرق بسيط على

جبهتها رغم برودة الجو .. لم يكن الامتحان صعبا أو عسيرا، أو الأسئلة التي يتضمنها من خارج الأجزاء التي استذكرتها، ولم يكن بوسعها الحكم أبدأ .. إذ أنها لم تري شيئا مما هو مكتوب في الورقة أصلا !

فقد شعرت بشيء بارد لزج ملتصق يزحف داخل عروقها .. فأجفلت وارتجفت ثم غامت عيناها تماما فلم تعد تري أمامها سوي نقاط متداخلة تتحرك علي خلفية سوداء جرداء من كل شيء..

تجمدت الدماء في عروقها، وتخثرت وأحست بأن دورتها الدموية توقفت .. تصلبت أطرافها، وتحول جذعها إلي كتلة من حديد صلب لا سبيل لتليينه أو زحزحته .. طمر وعيها تحت طبقات كثيفة من السواد القاتم المنهال عليها من أعلي، وأحست أن حائطا من الفحم ينهار فوقها دافنا إياها تحته .. لكنها كانت هناك .. كانت لا تزال هناك، في وسط لجنة الامتحان .. لكنها لم تكن تري شيئا، ولا تدري شيئا، ولا تحس بشيء مما يجري حولها.. فقط تلك الأصلة التي تزحف عبر عروقها متسامية إلي عروقها وتنفث سما مخدرا منوما في خلاياها الهامدة المتحجرة .. لقد تحولت روحها إلي قطعة حجر في داخل جسدها المتصلب بينما ظل ما تبقي من وعيها المكبل يجاهد ليتحرر بالداخل.

انبلجت عينا "جيهان" وهي جالسة مكانها وأنزلق القلم

وسقط من بين يديها، وتوقفت عن الكتابة والحركة وظلت فوق مقعدها كتمثال من جليد بلا حياة ..

لكن هناك، في داخلها المظلم الذي تسيطر عليه الحية الزاحفة سمعت صوته يحادثها، نفث في مسامع عقلها كلماته:

-"نحن أقوي منكم.. نحن خير منكم.. نحن أفضل منكم .. نحن جندلنا كباركم وأذللنا جباهكم وقتلنا منكم سادتكم أفسنعجز عن صغاركم يا فتاة ؟! "

داخل هيكلها المتصلب حركت عينا وعيها المتبقي وتابعت الأصلة وهي تزحف عبر عروقها .. كان ذلك هو كل ما يمكنها القيام به، لكنها لم تكن تستطيع دفعها ولا ردها ولا إبعادها .. تابعت الحية طريقها وهي لا تزال تنفث المزيد من الحقد والكراهية والشماتة:

-"خلت أنك ستهربين مني؟! خلتم أنكم ستقضون علي .. هيهات يا قبضات الطين النتنة! إننا الأقوى والأفضل والأجمل .. إننا قاتلوكم ومشردوكم وبجبروتنا نسود عليكم (ثم ضحك وأخذ يردد وسط قهقهات مرتفعة صاخبة)

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهم فلم نخطئ فؤاده* "

رددها مرارا ثم كأنه مل وصبره نفد سألها أخيرا:

-" أنت من اليوم لي.. سأحملك إلي ديارنا وستكونين خادمة لسيدك الجني الشديد البأس! لكن، ولأنني كريم ابن أكرمين، ولأنني خير منك فسأدعك تطلبين شيئا واحدا بعد.. سأتركك تختارين مطلبا واحدا قبل أن تفارقي هذه الأرض للأبد .. لك علي أن أحقق لك مطلبا واحدا، هذا العقد بيننا وبين نبيكم "سليمان" لا نحملكم إلي أرضنا إلا إذا حققنا لكم علي أرضكم مطلبا واحدا .. وإنني لفاعل! فماذا تطلبين يا فتاتي؟! "

تدفقت الدموع غزيرة في داخلها المتجهم المتصلب وحاولت التملص والفكاك لكنها عجزت عن تحريك عضلة واحدة قيد أنملة.. سالت دموعها، لكن أحدا من المحيطين بها لم يلاحظها، فالتلاميذ مشغولون بامتحانهم والمراقبين يثرثران عند باب اللجنة ويضحكان علي شيء ما .. ولا أحد هناك يدرك المعركة الهائلة التي تدور رحاها تحت جلد الفتاة الناحلة الجالسة هناك .. معركة بين جني مسيطر شرير وآدمية ضعيفة عاجزة عن التملص !

مضت تبكي نفسها حتى أدركت أنه لن يرحمها، لا، ولا هو يعرف الرحمة أصلا ليطبقها .. لا دين له ليردعه، ولا كبير له ليوقفه، ولا عهد له ليقيده .. ولا شيء في الكون يمكنه إنقاذها من بين قبضتيه الشريرتين الكافرتين!

طفق منتظرا جوابها ودموعها تسح على خديها دون أن يبالي بها أقل مبالاة .. مضت دقيقة ثم هتفت له راجية متوسلة:

-" أريد أن أري أهلي ! "

صمت.. خافت أن ينكث بوعده ويرفض أن يحقق لها حلمها الوحيد المتبقي لها الآن فقالت راجية برحمة:

-"أريد أن أري أبي.. بحق وعدكم لسليمان دعني أري أبي.."

وأضافت ودموعها تتفجر حزنا على نفسها:

-" أبي .. دعني أري أبي أرجوك ! "

ابتسمت الأصلة كاشفة عن نابيها الخارقين البارزين وقالت وهي تفح:

-" نعم .. لك هذا ! "

أقترب أحد المراقبين من "جيهان" الثابتة مكانها، بعد أن لاحظ أخيرا، أنها لم تكتب شيئا في ورقتها، ولا تحركت من مكانها منذ دقائق طويلة .. حادثا وهو يقلب في أوراقها:

-" مكتبتيش حاجة ليه ؟! "

لم ترد:

-" هو الامتحان صعب قوي ولا أيه ؟! "

لا إجابة ...

-" طيب يا بنتي حاولي بس تكتبي أى حاجة .. متسبيش الورقة فاضية كده .. ده غلط ! "

ما من إجابة ولا حركة تصدر عن الفتاة ...

-" مالك يا بنتي .. أنت تعبانة ؟! "

وعندما لم يأته رد أبدا تجرأ المراقب على مخالفة كل الأعراف ووضعه يده علي كتف الطالبة الساكنة وسألها بقلق:

-" مالك يا ماما .. في أيه ؟! "

حولت إليه عينين ساكنتين ثابتتين تماما .. ثم فجأة لمعت العينان ورأي شيئا لامعا كالشهاب الساقط يطل من عينيها ويلفحه كلقطة نارية ساخنة فأجفل وتراجع للخلف .. ثم تبخرت الفتاة !

كانت المنضدة الصغيرة والمقعد في مكانهما .. وفوق المنضدة انتثرت الأوراق والأقلام واستمارة الفتاة الحمراء وأغراضها الشخصية الصغيرة، علبة مناديلها ومساطرها وأقلامها الرصاص، لكن الفتاة نفسها لم تعد هناك .. هوت في الظلمة تاركة مقعدها فارغا، وتسربت مع النافذة المفتوحة مع نسمات الهواء. تبخرت تاركة الكون حولها وجودها الجسدي فارغا .. ولجنة الامتحان تنقلب رأسا علي عقب !

*****

عبر بوابة البيت الصغيرة المفتوحة دخلت "جيهان إمبابي" إلي بيتها وبيت أبيها للمرة الأخيرة في حياتها على تلك الأرض .. مرقت لتجد نفسها في الصالة الخارجية المتسعة وهناك كان والدها وأخوتها جالسون يتحدثون. كان الشيخ "تمام" قد حضر صباحا، في حوالي التاسعة مساء، وقام بتحصين موضع الدفينة والبيت كله بآيات الذكر الحكيم .. وقف على موضع الدفينة المندي بالمياه التي نضحوها عليها بأمس، وقرأ دعاء التحصين من الجن الذي أوله (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه)، ثم اتبعه بآيات مختارة من الذكر الحكيم، ثم أحضروا له إناء مليئا بالماء قرأ عليه المزيد من الآيات بتكرار معين، ثم صب الماء المحصن بآيات القرآن علي موضع الردم وهو يقرأ المزيد من الأدعية .. وعندما أنتهي الشيخ أحس الجميع بالراحة، وشعروا وكأن شيئا شريرا كان حالا بالمكان ورحل غير مأسوف عليه ولا مذكور بخير.. لكنهم لم يكونوا يعرفون أنه غادرهم هم ليحل بهيكل ابنتهم النحيل الضعيف ويسيطر عليه وعليها ..

لم تليتفت "جيهان" للأصوات التي انطلقت، من الجالسين ومن أبيها تسألها عما فعلت في الامتحان ولماذا عادت هكذا مبكرا جدا، سألوها ولم تجب .. وليس عن تمنع منها ولا ازورار عن أهليها بل لأنها كانت عاجزة عن النطق أو

الكلام .. فلم يتركها سيدها المسيطر عليها تفه بحرف أو تحرك عضلة واحدة في فمها دون أمره .. قادها فقط لتري أسرتها، تحقيقا لوعده، مشت تحت سطوته متصلبة عاجزة عن النطق أو الإتيان بأي حركة بإرادتها الخاصة .. وسرعان ما سمعت تلك الزاحفة الساكنة في عروقها تفح مهددة:

-"ها قد نفذت لك رغبتك .. والآن هيا معي طائعة بدلا من أن أدعك ترين مصارع أهلك بعينيك قبل أن أخذك إلي أرضي ! "

سالت دموعها وهي تلقي نظرة أخيرة على والدها وأخوتها .. بينما سألها أبوها بقلق:

-" مالك يا بتي .. أنت محلتيش في الامتحان ولا أيه ؟! "

لكنها لم ترد بل اتجهت، تحت قيادتها القسرية، إلي باب المخزن .. كان يقودها بعنف إلي حيث يبتغي ليأخذها من هناك إلي أرضه.. لكن المخزن كان مغلقا بالأقفال وسلسلة غليظة ..

لم يغلب علي أمره، بل أستمر يقودها وهذه المرة أتجه بها، بجسدها الميت، إلي المكان الثاني الذي بوسعه امتصاص وجودها منه وسحبها إلي عالمهم الخارق.. ولأن مرآة غرفتها قد تهشمت، فلم يبق له منفذ إلا في بيت النجاسة.. الحمام !

وهي تكافح لتدير رأسها لتلقي نظرة ثانية علي أبيها - خاصة أبيها- قادها بقوته ومنعها من فعل أى حركة تريدها بعد .. بل لوي ذراعيها وساقيها بعنف، فكادت تصرخ طالبة النجدة، لو أنها كانت قادرة على الصراخ .. ولو أنها كانت لا تزال تملك صوتها وحنجرتها !
لكنها لم تكن تملك من أمرها شيئا بعد .. فمضت تحت قبضته إلي الحمام وأبيها وراءها يناديها:
-" مالك يا بت .. في أيه ؟! "
فيرد عليه أخيها "بدر":
-" سيبيها يا أبا .. يمكن تكون زعلانة بس ومعرفتش تحل ولا حاجة .. شوية وهتبقي كويسة دلع بنات بس يا حاج ! "

لكنهم سيعرفون قريبا، وحينما يفاجئون عما قليل بأغرب منظر سيرونه في حياتهم، وأغرب موقف سيجدون أنفسهم فيه، بأن ابنتهم لم تكن تتدلل ولا شيء من هذا .. بل كانت تعاني تحت قبضة كائن شيطاني لا سبيل لمواجهته ولا التغلب عليه ..
بدون أن تضغط زر النور دخلت "جيهان" إلي الحمام .. أغلق الباب نفسه خلفها ووقفت هناك وسط الظلام تحت قبضته ترمق عالمها الأرضي للمرة الأخيرة. كان ينوي سحبها عبر أحد منافذ الحمام، وما أكثرها، ليتاح له أن يمتص

روحها وجسدها معا، فقد كان يخشي أن يتهاون فيفقد جزءا من روحها، أو عضوا من جسمها وهو يجرها إلي أسفل .. فجر الأدمي، روحا وجسدا، إلي أراضي الجن من أشق وأصعب ما يمكن .. يسهل سحب روحه وترك جسده لكن الاثنين معاً شيء لا يقدر عليه سوي جبابرتهم .. وقد كان هو جبارا غويا لا يشق له غبار ولا يشق عليه أمر!

ولأنه كان غاضبا منها، لتمنعها وإتعابها إياه ودفعه للكر وراءها، فقد قرر أن يعاقبها عقابا صغيرا أول أمره معها .. فسيجرها عبر موضع عفن لتذوق وبال أمرها وتعرف قدره وتحذر من عصيانه فيما بعد !

سيقودها عبر أنابيب الصرف !

في الحمام المظلم طرحها أرضا .. صوت سقوطها لفت انتباه زوجة أبيها التي كانت قريبة من مكان الحمام فصاحت منادية باسمها:

-" "جيهان" .. مالك يا أمي كفا الله الشر ؟! "

ولما لم تجب الفتاة خبطت بسلاميها علي الباب مكررة النداء:

-" "جيهان" .. يا بت مالك ؟! "

لكن البنت لم تجب، وما كان بمقدورها أن تفعل، فصاحت زوجة أبيها والقلق ينهش قلبها:

-" يا حاج .. يا حاج .. تعالي شوف بنتك مالها ؟! "

وأسرع الأب، الذي كان إحساس مشئوم غامض ينهش قلبه تجاه ابنته منذ الصباح ومنذ أن ودعها علي باب مدرستها، مهرولا وتبعه الأخوين .. ووصلوا عند باب الحمام ثم أخذوا في الطرق عليه بعنف وهم يصيحون:

-" "جيهان" .. "جيهان" .. مالك ؟! في أيه ! "

صمتوا برهة منتظرين ردا يأتيهم من الداخل ويشفي هم قلوبهم لكنه لم يأتي .. حينها لم ينتظر الأب بل صاح في ولده الأكبر أمرا:

-" كسر الباب يا "خالد" ! "

وفي الداخل بذلت "جيهان" محاولتها الأخيرة للإفلات .. كانت أصوات أبيها وأخوتها وهم يكافحون للوصول إليها قد أذكت الحياة الهامدة في عروقها .. فحاولت الإفلات، قاومت، أرادت الصراخ وكادت تنجح في ذلك، تحركت بعنف بينما هي راقدة علي الأرضية المبتلة الرطبة . أغتاظ وتفاجأ من الحياة التي دبت فيها فجأة .. أحكم قبضتيه عليها بعنف، وغادر هيكلها متشكلا في هيئته الحقيقية بجانبها، متخليا عن جلد الأصلة وخلقتها، قاومته ثانية وحاولت دفعه بعيدا .. لكنه وقد أشتعل غضبه الناري نهرها بقوة ولفحها بلفحة نارية مفاجئة، فأحترق جانب رقبتها حرقا عميقا شديدا، وعندما أبدت المزيد من المقاومة دفعها لأسفل، ليرتطم رأسها بقاعدة الحمام

البلدي المصنوعة من السيراميك ، همدت حركاتها كلها وتوقفت .. فقدت الوعي وتفجر الدم من جرح ضخم في مؤخرة رأسها !

جذبها لأسفل وجرها عبر متاهة من الأنابيب والمواسير المليئة بالقاذورات .. بينما كان أخيها في الخارج يضرب ضربته للباب الموصد ..

ودفع الشاب المتين الباب بكتفه فتهاوي تحته من ضربة واحدة .. كانت زوجتا الابنين قد جاءتا على أصوات الصراخ والنداء وجلبة تحطيم باب الحمام ..

ولأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الفتاة بالداخل فاقدة الوعي، وهي في منظر غير لائق، فقد أضاء الأب النور وطلب من الحريم أن يدخلوا ليرين ما أصاب البنت .. لكنها لم تكن هناك !

على هدي الضوء الصغير الواهن .. رأوا الحمام في حالة الفوضى، والليفة المعلقة بمسمار إلي الجدار ملقاة وممرغة علي الأرض والمياه تغمر المكان لكن البنت لم تكن هناك .. صرخت زوجة الأب وولولت، وسبقتها المرأتين الشابتين، وأندفع الرجال الثلاثة مقتحمين الحمام إلصغير وتزاحموا كلهم فيه .. شاهدوا الفوضى بينما كانوا يبحثون كالمجانين عن "جيهان"، التي دخلت أمام أعينهم إلي هنا وأغلقت الباب على نفسها، لكن لم يجدوا منها شيئا .. فقط وجدوا

بقع دم حول قاعدة المرحاض .. دم كثير متناثر، لكن لا أثر لـ"جيهان" .. التي لن تقع عيونهم عليها بعد ذلك أبدا .. ربما !

تمت

* الوصف الوارد عن محاولات فتح الدفينة هنا غير حقيقي ومن خيال الكاتبة ولا علاقة له بما يحدث في الواقع ..

الكاتبة

الدفينة

ذلك الشيء يصر على مطاردتها .. كان يكفيه أن يطاردها في نومها لكنه طماع فيما يبدو .. فلم يعد يقنع بتكدير منامها فقط.. بل لقد زاد تجبرا وعتوا وجرؤ على أن يظهر لها في صحوها أيضا سامحا لها أن تراه رؤى العين !

ضَراغِمَة الجن حينما يعشقون يفجرون !

وقد عشقها ذلك الجني الضرغام للأسف .. لكن من أين آتي ذلك المخلوق وكيف ابتليت به ولم هي من دون الناس أجمعين فذلك ما لم " جيهان " لتعرفه .. كما أنها لم تتوقع أبدا أن تكون أفعال أبيها وأخوتها الغريبة وضربهم وحفرهم في أرض المخزن أسفل البيت لها أية علاقة بعذابها أو بمعاناتها .. إنها لم تكن تعرف ذلك وحسنا تفعل !



